نوابغ الفكر العربي

سيبويه - ابن سينا - ياقوت الحموي

تأليف

محمد الأبراشي

أبو الفتوح التوانسي

الكتاب: نوابغ الفكر العربي (سيبويه – ابن سينا– ياقوت الحموي)

الكاتب: محمد الأبراشي، أبو الفتوح التوانسي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
الأبراشي، محمد/ التوانسي، أبو الفتوح
نوابغ الفكر العربي (سيبويه– ابن سينا– ياقوت الحموي)/ محمد الأبراشي، أبو الفتوح التوانسي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٥٦ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٧٤٠ / ٢٠٢٠

نوابغ الفكر العربي

سيبويه - ابن سينا- ياقوت الحموي



مقدمة

للعرب والمسلمين ماضٍ حافل زاخر بتيارات دافقة من العلوم والفنون، وألوان شتى المعارف، والثقافات والأفكار، ففي العصور الوسطى كانت الزعامة العلمية في بغداد وقرطبة والقاهرة.

وليس من سبيل أقوى إلى إحياء التراث العربية إلا بالتعريف بقادة العرب الأولين في الثقافة والفكر؛ إذ لا شئ يقوي النهضة الفكرية؛ أكثر من الاتصال بقديم العرب في العلم والثقافة، كي نبني على هذا القديم أساسًا جديدًا من حرية الفكر، فإذا جمعنا بين معرفة هذا القديم، وما ننقله عن الغرب الحديث خطونا إلى الأمام خطوات سريعة، وأعدنا إلى بلادنا مجدها العريق في العلوم والفلسفات، على أساس قوي سليم من العلم الصحيح والمعرفة الصافية، علم العرب القديم المهذب، وعلم الغرب الحديث الخالص من الشوائب.

ويسرنا أن نقدم في هذه المجموعة ثلاثة من الأعلام، نوابغ في نواحٍ مختلفة من التفكير، ومنهجنا في تقديمهم يجري على إيثار الأسلوب الواقعي البعيد عن تكلف العرض الخيالي، مع عدم التعمق في المسائل الفكرية؛ لأن المقصود من هذه التراجم تقديم خلاصات تاريخية دقيقة، مع العناية بالتحقيقات الضرورية لأسماء المدن وأعلام الأشخاص من كتاب وعلماء وفلاسفة وغيرهم، وتوضيح بعض المذاهب الدينية والأدبية، التي ترد في أثناء البحث، وغايتنا من هذا العمل أن ينتفع به

الشباب الذين سيحملون مشعل القومية العربية، كما نقدمه خالصًا لوجه العروبة، ولكل باحث مهتم بثقافات العرب على أختلاف ألوانها.

والله ولي التوفيق

جمادى الثانية سنة ١٣٧٥ هـ

فبراير سنة ١٩٥٦

سيبويه .. إمام البصريين وحجة النحويين "سنة ١٨٣ هـ"

نشأته وحياته:

هو أبو بشر عمرو بن عثمان، إمام البصريين، وحجة النحويين، وهو من سلالة فارسية. وكان مولى لبني الحارث بن كعب من مذحج، ولقب بسيبويه، وهي كلمة فارسية معناها رائحة التفاح، قيل: لأنه حينما كان غلامًا صغيرًا كانت له وجنتان، تبدوان كأنهما تفاحتان، فلزمه هذا اللقب واشتهر به، وقيل: لأنه كان مع جمال صورته طيب الرائحة جدًا.

ولد ونشأ بقرية من قرى "شيراز[١] "تسمى "البيضاء"، ثم قدم البصرة[٢]، وكان يطلب أول الحديث والفقه؛ إذ كان مولعًا بهما مع ميله إلى التفسير، فلزم في البصرة حلقة حماد بن سلمة. ويزعم الرواة أنه قال يومًا لأستاذه حماد: هل حدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رُعُف "بضم العين"، فقال حماد: أخطأت، إنما هو رعَف بالفتح، فانصرف إلى

---

[١] شيراز : مدينة في بلاد فارس جنوبًا، بناها محمد بن القسم بن أبي عقيل، وكانت قاعدة عماد الدولة بن بويه، وفيها قبر سيبويه.

[٢] البصرة: (Bassorah) بناها عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ على شط العرب، وهو نهر يجمع دجلة والفرات، ويصب في بحر فارس، قرب عبادان، وفيها كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ، واجتمع فيها ((إخوان الصفا)) وألفوا رسائلهم، وكان بها سيبويه وأصحابه؛ وعدد لا يحصى من العلماء والنحاة والفقهاء، والأدباء والشعراء، منهم آل ماسرجويه من نقلة العلم في زمن المأمون العباسي، وحنين بن إسحق العبادي، والحريري، وبشار بن برد، والأصمعي، وخلف الأحمر، والخليل ابن أحمد، والجاحظ، وأبو الأشعري.

الخليل بن أحمد، وشكا إليه ذلك، فقال له الخليل[3]: الحق مع حماد، والضم لغة ضعيفة. وقيل إنه كان يستملى على حماد قول النبى "صلى الله عليه وسلم": ""ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الرداء"". فقال سيبويه: ليس أبو الرداء ظانًا أنه اسم ليس، فصاح به حماد: لحنت يا سيبويه، إنما هذا استثناء، فقال: لا جرم لأطلبن علمًا لا يلحنني معه أحد، فطلب النحو، وعكف على الاشتغال به، والأخذ عن الخليل بن أحمد، وكان لا يدركه ملل ولا فتور في التردد عليه، والاشتغال بعلمه.

قال أحد الرواة: كنت يومًا عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه، فقال الخليل: مرحبًا بزائر لا يمل، وقال آخر: ما سمعت الخليل يقولها

---

[1] الخليل بن أحمد: هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، نابغة العرب، وسيد أهل الأدب، ومخترع العروض، ومبتكر المعجمات، وصاحب الشكل العربي المستعمل الآن، كان مضرب المثل في تصحيح القياس، وتعليل النحو، واستنباط مسائله، وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه، أو مستمد منه، كما كان على علم بالموسيقا، وفيها وضع كتابًا دقيقًا، على غير إلمام بلغة أجنبية، ولا علم بآلة موسيقية، وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض، لما بين الإيقاع في النغم والتقطيع في الأجزاء من الشبه، فضبط أوزان الشعر، وكانت خمسة عشر وزنًا، أو بحرًا، وزاد في الشطرنج قطعة سماها جملًا، ولب بها الناس زمنًا، وقد نبغ في اللغة والتاريخ نبوغًا لا يعرفه التاريخ لغيره، وبقي طول حياته مقيمًا بالبصرة على فاقة وقشف، نزوعًا بتفسد عن مواقف الضراعة، وتجافيًا عن مطارح الهوار، حتى قيل: إن سليمان ابن علي وجَّه إليه من الاهواز رسولًا يستقدمه؛ ليكون مؤدِبًا لولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا قفارًا، وقال له: (كل فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة إلى سليمان). وقد ولد بالبصرة سنة ١٠٠ هـ وتوفي سنة ١٧١ هـ، وقبر سنة ١٧٤ هـ، رحمه الله.

لأحد إلا لسيبويه. ويُفهم من هذه الروايات أن سيبويه كان يطلب الفقه والحديث والتفسير في أول حياته العلمية، ولما وقع في اللحن آلمه ذلك، وانصرف إلى طلب النحو، وتتلمذ للخليل بن أحمد. على أن سيبويه لم يقتصر في الأخذ عن الخليل، بل أخذ يجد في طلب النحو ودرسه على فحول الأئمة في عصره، ومنهم يونس[1] بن حبيب، وعيسى[2] بن عمر، والأخفش[3] الأكبر.

ومازال مجدًا في طلب النحو، مواظبًا على درسه، حتى ضار فيه أعلم المتقدمين والمتأخرين، فوضع فيه كتابًا، لم يوضع مثله، وعليه كان اعتماد النحويين. وكان إذا ذُكر الكتاب عند النحويين والأدباء، انصرف ذلك إلى كتاب سيبويه، فهو علم عليه الغلبة، وهو أصل كل كتاب في

---

[1] يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ من علماء الطبقة الثالثة البصرية.

[2] عيسى بن عمر: هو عيسى بن عمر الثقفي المتوفى ١٤٩ هـ، وهو من علماء الطبقة الثانية البصرية. كان يطعن على العرب، ويخطئ المشهورين منهم مثل النابغة في بعض أشعاره، وسبب ذلك أنه كان من المتشددين المتقعرين في اللغة.

[3] الأخفش الأكبر: هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، كان إمامًا في العربية، لقي الأعراب، وأخذ عنهم، وعنه أخذ يونس بن حبيب وسيبويه والكسائي وأبو عبيدة. وكان ورعًا دينًا ثقة، وهو المعروف بالأخفش الأكبر، وقد لقب بالأخفش ثلاثة من العلماء : أولهم الأخفش الأكبر الذي مر ذكره.

والثاني الأخفش الأوسط، وهو ابو الحسن سعيد بن مسعدة، مولى بن مجاشع بن دارم، أخذ النحو عن سيبويه، مع انه كان أسن منه، وهو صاحب كتاب ((معاني القرآن)). وتوفي سنة ١١٠ هـ. والثالث الأخفش الصغير، وهو أبو الحسن علي بن سليمان الفضل، قرأ على ثعلب والمبرد واليزيدي، وذكر له ياقوت مؤلفات منها شرح كتاب سيبويه. وكان ابن الرومي الشاعر يهجوه كثيرًا، وقد توفي فجأه سنة ٣١٥.

النحو، ولهذا ولقدم وضعه صح أن يطلق عليه شيخ الكتب. وقال الجاحظ: إن كل من كتب في النحو بعده إنما كان من بحره يستمد، وعليه يعول، وقال أيضًا: أردت الخروج إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه قلت له: لم أجد شيئًا أهديه إليك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء[1]، فقال: ما أهديت إليَّ شيئًا أحب إليَّ منه، وقيل إن الجاحظ قد أعلم ابن الزيات بالكتاب قبل أن يحضره إليه، فقال له: أظننت أن خزائنك خالية من هذا الكتاب؟ قال: لا، ولكن هذا الكتاب بخط الفراء ومقابلة الكسائي[1] وتهذيب الجاحظ، يعني نفسه.

---

[1] الفراء (١٤٤ هـ – ٢٠٧ هـ) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، ولد بالكوفة، ولزم الكسائي، وتخرج عليه، وشافه الأعراب وأخذ عنهم، ثم درس علومًا كثيرة منها الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فامتاز بذلك من أستاذه. وكان يميل إلى الاعتزال، ويحب النظر في علم الكلام، فأفاد من ذلك ملكة النظام والترتيب، وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يُعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره، قال أبو العباس ثعلب: ((لولا الفراء لما كانت اللغة العربية؛ لأنه حصلها وضبطها، ولولاه لسقط)).

وحين عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها، وخلفه على درسه بعد موته، ولما ولي المأمون الخلافة اتصل به الفراء، فعهد إليه المأمون بتعليم ولديه الأدب، وأمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، فوضع كتاب الحدود، وكتب معاني القرآن. والفراء زعيم نحاة الطبقة الثالثة من مدرسة الكوفة، وقد عظم شأنه في الدولة العباسية. فقد كان يتسابق في تقديم نعليه حين يهم بالخروج ولي عهد المسلمين، وكان أكثر مقامه في بغداد فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة؛ فيقيم بين أهله أربعين يومًا يفرق عليهم ما جمع، حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ.

[1] الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ: هو أبو الحسن على بن حمزة الملقب بالكسائي. نشأ بالكوفة، وأخذ القراءة عن حمزة الزيات. وتميز بقراءة خاصة. فعُد من القراءة السبعة، وهو

فقال ابن الزيات: هذه أجَّل نسخة توجد وأعزها. كان سيبويه زعيم الطبقة الرابعة البصرية. انتهت إليه زعامة نحو البصريين، في وقت تميزت فيه علوم العربية من نحو وتصريف ولغة وعروض، وقوافٍ وأخبار وسير ونوادر.

٢- سيبويه في بغداد:

وحينما اطمأن سيبويه إلى نفسه، ورأى أنه قد صار إمام النحويين في البصرة، انتقل إلى بغداد، وهي حاضرة الدولة، وعش الأدباء والشعراء، وندوة العلماء، يتذاكرون فيها مسائل العلم، ويتناظرون. ويجب ألا ننسى أن التنافس بين مدرستي الكوفة والبصرة كان قويًا عنيفًا، فقد كان بين المدرستين خلاف قوي في أساليب البحث ومناهجه، وقد كانت سياسة الدولة قائمة على إيثار علماء الكوفة وتأييدهم، واتخاذهم

إمام الكوفيين في اللغة والنحو، والمؤسس للمذهب الكوفي، وقد طلب النحو على الكبر، وذلك بعد لحنة لحنها أمام جمع من طلاب العلم، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفذ ما عندهم، ثم خرج إلى الخليل بالبصرة، وجلس في حلقته، وأعجبه علمه، فقال له: من أين علمك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة، فخرج إليها، وأنفد خمسة عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ عنهم، ولما رجع من البادية أرسل المهدي في طلبه. فخرج إلى بغداد، وحظي عنده، وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد، ثم جعله الرشيد مؤدب ولده الأمين، وبقي وجيهًا عنده، فكان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة على كرسيين متميزين بحضرته، وأمرهما بألا ينزعجا لقيامه ومجيئه ومازالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيد إلى الري، وهما في صحبته، فما تأنى في يوم واحد، فبكاهما وقال: دفنت الفقه والعربية بالري، وذلك في سنة ١٨٩ هـ. وألف الكسائي عدة كتب لم يصلنا منها إلا رسالة في لحن العامة وهي مطبوعة .

مؤدِبين لأولاد الخلفاء، فكان الكسائي إمام الكوفة وشيخ علمائها يعلم ابني الرشيد: الأمين والمأمون. وكان الفراء يؤدب ابني المأمون، واب[4] السكيت يعلم أولاد المتوكل، وسبب ذلك موقف الكوفيين السياسي، فقد كانوا في أول أمرهم أعوانًا وأنصارًا لعلي بن أبى طالب "كرم الله وجهه"، وهو الذي اتخذ مدينتهم عاصمه له، ثم صاروا من بعده أعوانًا لبني العباس، لذلك آثر خلفاء بني العباس أهل الكوفة، وأجزلوا لهم في العطاء، وكافأوهم على إخلاصهم، واتخذوا علماءهم لدولتهم، وفضلوهم على علماء البصرة، لأن البصريين كانوا دعاة الأمويين. تلك هي الظروف السياسية التي ألجأت العباسيين إلى تفضيل الكوفيين على البصريين، ومنها يتضح الموقف السياسي لكل من المدرستين.

أما الخلاف في طرائق البحث فيرجع إلى عناصر كثيرة؛ منها موقع كل من المدينتين، فالبصرة تقع على مشارف الصحراء، فكان اتصال

---

[4] ابن السكيت: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق، ويعرف بابن السكيت، وهو لغوي ونحوي مشهور، أصله من بليدة تسمى دررق من كور الأهواز بخرزستان، وقيل إنه ولد ببغداد. درس على أبيه وعلى الفراء والأصمعي وأبي عبيدة، وارتحل إلى عرب البادية، وبعد عودته إلى بغداد صار مدرسًا، ثم مؤدبًا لآل ابن طاهر في سامرا، إلى أن كلفه الخليفة المتوكل تأديب ولديه المعتز والمؤيد، وكان ابن السكيت علويًا، ولم يكن ذلك ليخفى على الخليفة الذي أمر به أن يقتل شر قتلة، فمات مقتولًا ٢٤٤ هـ. وسمى أبوه السكيت لأنه كان طويل السكوت، ومن مؤلفاته: إصلاح المنطق طبع القاهرة. وقد قيل في شأن هذا الكتاب: ما عبر جسر بغداد كتاب في اللغة مثل إصلاح المنطق، وقيل: (إصلاح المنطق كتاب بلا خطبة؛ وأدب الكاتب لابن قتيبة خطبة بلا كتاب)، ومنها إكساب الألفاظ طبعة شيخو، وكتاب الأضداد.

علمائها بأغراب البادية قويًا، أما الكوفة فكانت أقرب إلى أرض السواد[1]؛ لذلك خضعت لتيار التأثير الجانبي، كما يختلف أمل كل المصريين في الطبائع والميول النفسية، فأهل البصرة أصلب عودًا، وأشد مراسًا، وأوغل في العروبة، بخلاف أهل الكوفة الذين عُرفوا بالوداعة والسكينة والخضوع، وقد كان لذلك – ولا شك – أثر في المنهج وطريقة البحث: فالبصريون قوم محافظون أشد المحافظة، قويو الرغبة في الوقوف على الشواهد العلمية الكثيرة، لا يكتفون بالشاهد الواحد أو الاثنين، وعلى هذا المبدأ الدقيق في استقصاء الشواهد والفحص عنها ومناقشتها يبنون قواعدهم، ويؤولون ما ورد مخالفًا، ويحكمون بأنه شاذ. ومن أجل ذلك كثر عندهم الشاذ، على حين قل عند الكوفيين.

كان البصريون على شيء كثير من دقة الملاحظة، والمبالغة في الحيطة، حتى أنهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر لفساد لغتهم، ولا بالقبائل التي احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام[2] وخلف[1] الأحمر، فأخذ خلف يسأل سيبويه عن مسألة، فأجابه عنها، قال له: أخطأت، ثم سأله مرة ثانية وثالثة وهو يجيبه، وفي كل مرة يقول خلف: لقد أخطأت، فلم

---

[1] كان العرب يسمون بلاد العراق أرض السواد لخصب أرضها، ووفرة مياهها.

[2] لخم وجذام بطنان من كهلان من العرب القحطانية، وهم أهل اليمن، وكتابتهم بالخط المسند، ولغتهم الحميرية.

[1] خلف الأحمر: وخلف بن حيان كان مولى أبي بردة. وأصله من فرغانا، ولكنه حفظ كلام عرب الجاهلية وأشعارهم، حتى صار يقول الشعر الجيد.

ويتجله الشعراء المقدمين، فلا يتميز من شعرهم، لمشاكله كلامه وكلامهم، وهو بصري أخذ عن الأصمعي، وله قدرة على تمييز الأشعار وتعيين أصحابها، وتوفي سنة ١٨٠ هـ.

يملك سيبويه نفسه حتى بادره بقوله: ""هذا سوء أدب""، وعندئذ تدخل الفراء، وأقبل على سيبويه وقال له: إن في هذا الرجل حدة وعجلة، ثم قال: ولكن ما تقول في من قال: ""هؤلاء أبون، ومررت بأبين""؟، كيف تقول على مثال ذلك من وأيت وأويت؟

فأجابه سيبويه، فقال الفراء: أعد النظر، فقال سيبويه: لست أكلمكما حتى يأتي صاحبكما، فلما حضر الكسائي قال له سيبويه: ""تسألني أو أسألك؟"" فقال له سيبويه: ""سل أنت""، فقال الكسائي: ""يا بصري، كيف تقول فيما قال العرب: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبار، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟""، فقال سيبويه: ""فإذا هو هي، ولا يجوز النصب""، ثم سأله عن مسألة أخرى شبيهة بمسألة الزنبار والعقرب، فقال: ""ما تقول في نحو خرجت فإذا عبد الله القائم، بالرفع أو النصب""، قال سيبويه: ""كل ذلك بالرفع""، فقال الكسائي: ""العرب ترفع كل ذلك وتنصبه""، وكان يحيى بن خالد حاضرًا يستمع إلى هذه المناظرة، فقال: ""قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما؟""، فقال الكسائي: ""هذه العرب ببابك"".

وكان الكسائي ويحيى قد أعدا هؤلاء الأعراب، وأوعزا إليهم بما سيكون من أمر، وكان من هؤلاء الأعراب راوٍ يقال له أبو الجراح، وهو ممن كان يأخذ عنه الكسائي، فأُدخل على الجمع ومن معه من الأعراب، فقال لهم الكسائي: كيف تقولون: قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعًا من الزنبور، فإذا الزنبور إياها بعينها"". فقالت طائفة: ""فإذا الزنبور

هي""، وقالت أخرى: ""فإذا الزنبور إياها بعينها"". فقال الكسائي: ""هذا خلاف ما تقول يا بصري"". وهنا التفت رب الدار إلى سيبويه، وهو الغريب المستوحش، فقال له: ""قد تسمع أيها الرجل"".

وعندئذ فهم سيبويه من هذه الجملة الخشنة أن يحيى من رأي الكسائي، وأن المؤامرة لإسقاطه قد حبكت أطرافها، ودُبرت بإحكام ودقة، فاستكان سيبويه وقطع عن الحديث، وبدأت عليه دلائل الهم والغم. وعندئذ يسرع الكسائي إلى يحيى، كي يطمئن على أن المناظرة قد انتهت، وأن الغلبة صارت له، فيقول: ""أصلح الله الأمير لقد وفد عليك هذا الرجل من بلده مؤملًا، فإن رأيت ألا ترده خائبًا""، فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم، وبهذه الوسيلة أراد الكسائي أن يحقق لنفسه الغلبة، وأن يصطنع الناس بالمال، للإقرار بزعامته العلية، ولتظل مكانته عند الخليفة على نحو ما يحبه ويشتهي.

وقد حدث أن الأخفش حين علم بما دبره الكسائي ذهب مغاضبًا إليه، طالبا ثأر أستاذه، فتحتدم المناقشة بينهما، ويسأل الأخفش[1] الكسائي بين تلاميذه ويخطئه في كل جواب يقوله، وعندئذ يثور تلاميذ

---

[1] هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي، نحوي عالم باللغة والأدب، ومن زعماء النحو بالطبقة الخامسة البصرية، أخذ النحو والعربية عن سيبويه، وهو ناشر كتابه وشارحه ومنتقده، وصف كتبًا منها: تفسير معاني القرآن والاشتقاق، ومعانى الشعر، وكتاب الملوك، وزاد في العروض بحر الخبب، وكان الخليل قد اخترع خمسة عشر بحرًا من أوزان الشعر العربي، فصارت بعد ذلك ستة عشر بحرًا، وهو الأخفش الأوسط سبعين دينارًا أجرًا على ذلك، كما وُجد شيء من أجزاء هذا الكتاب تحت وسادة الفراء كان يجلس عليها.

الكسائي، ويحاولون ضرب الأخفش الذي أهان أستاذهم، وأذل كبرياءه العلمي بينهم، فيمنعهم الكسائي من ذلك لا محافظة على الأخفش، ولكن خوفًا من ذيوع ما كان بينهم من جدل، ثم يقبل على الأخفش يعانقه مسترضيًا متحببًا إليه، ويعهد إليه بتعليم أولاده، ويرشوه بالمال محاولًا بذلك أن ينسيه ثأر صديقه العظيم سيبويه، ولم يكن الكسائي على درجة من العلم والذكاء تؤهله إلى الزعامة العلمية في بغداد، وكان من بين تلاميذه من هو أقدر منه على الحجاج والجدل، وأغزر منه في المادة العلمية كالفراء مثلًا، ولكن الفراء طمع في جاه الكسائي فتقرب إليه طمعًا في أن يجعل له شيئًا من الحظوة لدى البرامكة أولًا والخليفة ثانيًا.

رجع سيبويه إلى بلده ""البيضاء "" بفارس مكسور الخاطر، وقد كان لهذه الهزيمة التي دبرها أعداؤه أثر في صحته، فمات كمدًا – رحمه الله – ولم يجاوز الأربعين. وما من شك في أن سيبويه كان أكبر علماء عصره في النحو وأنه كان أستاذ الأساتذة في هذا العلم، وأثنى عليه بما لم يثن عليه بغيره، كما شهد له أكبر علماء النحو بالتفوق والفضل، ولقد استمان بكتابه خصومه أنفسهم، يقال: إن الكسائي قرأ على الأخفش كتاب سيبويه وأعطاه

رأي النحاة في هذه المناظرة:

لم يكن رأي الكسائي في مسألة ""العقرب والزنبار"" صحيحًا، فهو مخالف لما ورد في القرآن الكريم، ووجه الكلام أن يقال: ""فإذا هو هي""، كما في قوله تعالى: ""فإذا هي بيضاء للناظرين""، وقوله: ""فإذا

هي حية تسعى""، وأما قول الكسائي: ""فإذا هو إياها""، فهو إن ثبت فإنما هو خارج على القياس واستعمال الفصحاء، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون إلى مثل هذا، وإن تكلم به بعض العرب.

ولعلماء النحو توجيهات علمية لهذه المسألة، منها ما قاله أبو بكر الخياط: أن "إذا" ظرف فيه معنى وجدت ورأيت، فجاز أن ينصب المفعول، وهو مع ذلك ظرف مخبر به عن الاسم بعده، ومنها أن ضمير النصب استعير في مكان ضمير الرفع، قاله ابن مالك، ومنها أنه مفعول به، والأصل: فإذا هو يساويها أو يشابهها، ثم حذف الفعل فانفصل الضمير، وهذا التوجيه لابن مالك أيضًا. وهناك آراء وتوجيهات أخرى ناقشها ابن هشام[1] في كتابه "المغني".

[1] ابن هشام: هو جمال الدين الشهير بابن هشام المصري، ولد بالقاهرة سنة ٨٠٧ هـ، وأخذ عن ابن السراج وأبى حيان والتاج التيريزي، وتعلم فقه الشافعي وابن حنبل، وأتقن العربية، وفاق معاصريه وشيوخه، وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته، فقال: ((وما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه بمصر عالم بالعربية أنحى من سيبويه)). وله مؤلفات مشهورة منها شذور الذهب وشرحه، وقطر الندى وشرحه، وتوضيح المسالك على ألفية ابن مالك، وأشهر كتبه كتابه العجيب ((مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب))، وقد شرحه الدماميني والأشموني والدسوقي، ويقول فيه ابن خلدون: ((وو صل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها، وسمي بالمغنى في الأعراب، وأشار إلى نكت أعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علي ما يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة، ووفور بضاعته منها، إلى أن يقول فيه: (كان ينجو في طريقته منحى أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى، واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكيته واطلاعه،

رأي العلماء في المتناظرين:

أما سيبويه ففضله ذائع، وخبرة مشهور، بالرغم من انتصار الكسائي: وكتابه الذي ألفه في النحو لم تبل جدته إلى اليوم، ولا يزال كتاب أدب ونحو، وأسلوبه في المكانة العالية من فصاحة البيان، فقد كان المبرد[1] رحمه الله يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: ""هل ركبت البحر؟"" تعظيمًا لشأن الكتاب، وكان الزجاج[1] يقول: ""إذا تأملت الأمثلة من كتاب

ويذكر الرواة غير ابن هشام المصري النحوي، عبد الملك ابن هشام صاحب السيرة، ومحمد بن يحيى بن هشام الخضراوي نسبة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس، وهو نحوي، ومحمد ابن أحمد بن هشام اللخمي نحوي أيضًا، وتوفي سنة ٧٦١ هـ، ودفن خارج باب النصر بالقاهرة.

[1] هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي. نسبة إلى سمالى، وهي قبيلة من الأزد، ويعرف بالمبرد، ولد سنة ١٠ هـ في البصرة وانتقل إلى بغداد وكان شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمها بعد الجرمي والمازني، كان قوي الذكر كثير الحفظ، معاصرًا لأبي العباس ثعلب، وجرت بينهما منازعات ومعارضات، ومن مؤلفاته (الكامل) وهو كتاب في الأدب، ويقول جورجي زيدان: إنه من كتب اللغة الممهدة للمعاجم، وفي كثير من القراءات التاريخية، أهمها فصل الخوارج ويحوي حقائق هامة من تاريخ بني أمية، طبع في ليبك سنة ١٨٦٤ م وفي الأستانة سنة ١٢٨٦ هـ، وفي مصر سنة ١٣٠٨ هـ، وله تهذيب للأستاذ السباعي بيومي، وله كتاب المقتضب بالاسكوريال، وكتاب الروضة، وإعراب القرآن الكريم، وطبقات النحاة البصريين.

[1] هو أبو إسحق بن السرى بن سهل الزجاج. سمى بذلك؛ لأنه كان يخرط الزجاج. تلقى العلم على المبرد، وكان يدفع له الأجرة بمشقة لقلة ذات يده، ثم ذهب بعضهم معلمًا من المبرد، فدلهم عليه، وصار مؤدبًا للقاسم بن عبيد الله ابن سليمان، فكان ذلك سبب غناه. وتوفي سنة ٣١١ هـ، ومن مؤلفاته: كتاب سر النحو، والإبانة والتفهيم عن سر بسم الله الرحمن الرحيم. وخلق الإنسان في اللغة، وكتاب معاني القرآن.

سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة""، وقال الجرمي: "أنا منذ الثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتب سيبويه""، والجرمي يريد بذلك أنه تعلم منه طريقه النظر وأساليب البحث والقياس. وقال المازنى[٢]: ""من أراد أن يعمل كتابًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"".

وقد وضع سيبويه كتابه الذي يعد إمام كتب النخو في الوقت الذي كان فيه الكسائي مشغولًا بالمناصب، منصرفًا إلى الاتصال بالخلفاء مهتمًا بأمر الدعاية لنفسه، ومن السخافات التي اعتمد عليها الكسائي في سبيل الدعاية الكاذبة لنفسه أنه كان يذيع بين الناس أنه ذلك العالم الذي استنفد خمس عشرة زجاجة من المداد في الكتابة عن العرب. وكان علماء اللغة وأئمة النحو يحترمون سيبويه، ويقرون مذهبه. ويعتمدون عليه، وعلى عكس ذلك كانوا ينفرون من مذهب الكسائي، ويرون فيه إفسادًا للغة، وإضاعة للنحو، يقول ابن درستويه[٥]: ""كان الكسائي يسمع الشاذ لا يجوز إلا في الضرورة، فيجعله أصلًا يقيس عليه حتى أفسد بذلك النحو"".

وقال الأصمعي: ""أخذ الكسائي اللغة عن أعراب من الحطمة،

---

[٢] هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني من أهل البصرة، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي، وله مؤلفات كثيرة في النحو والعروض لم يصلنا منها شيء. وقد عاصر الواثق بالله، والمتوكل على الله، وجالسهما؛ ونال جوائزهما، وكان معاصرًا لأبي عمر الجرمي والمنوفي سنة ٢٢٥ هـ، وهما عمدتا النحو في البصرة يومئذ.

[١] ابن درستويه: هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارس الفسوي النحوي، كان عالمًا فاضلًا، أخذ الأدب عن ابن قتيبة وعن المبرد، وغيرهما، وأخذه عنه جماعة، منهم الدار قطني. توفي سنة ٣٤٧ هـ ببغداد، والفسوي نسبته الى فسا وهي بلدة بالفارسية بسا، والنسبة إليها في الفارسية بساسيري، وفي العربية فسوي.

ينزلون بقطربل[٢]، فلما ناظر سيبويه؛ استشهد بلغتهم عليه، وقال محمد اليزيدي متندرًا منددًا بمذهب الكسائي وأصحابه:

كنا نقيس فيما مضى — على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه — على لغى أشباخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما — به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأصحابه — يرقون في النحو إلى أسفلِ

وقال الزجاج[١]: ""أي إنصاف في الرجوع إلى أعراب وفدوا

---

[٢] فطربل، وقطربل، وقطربل، وقطربل: الضبط الأول وارد في كتاب الصحاح للجوهري، وفي معجم ما استعجم، والثاني وارد في معجم ياقوت الحموي (تقويم البلدان)، والرابع ورد في كتاب تقويم البلدان، لأبى الفداء إسماعيل، وقطربل: اسم قرية بين بغداد وكعبراء، ينسب إليها الخمر، وكانت متنزهًا للبطالين، وحانة للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، قال أبو نواس:

طربت إلى قطربل فأتيتها — بألف من البيض الصحاح وعين
ثمانين دينارًا جيادًا أعدها — فأتلفتها حتى شربت بدين

[١] الزجاج: تقدمت ترجمته.

[٢] المعرة: قيل هي معرة النعمان، بلدة من أعمال حلب بينها وبين حمص، تحيط بها الكروم، وبساتين الفاكهة التي تسقى بماء الأمطار والآبار، وهي من المدن الشامية القديمة العهد التي مصرها الأراميون ومن قبلهم، وعلى ذلك فالصحيح أن اسمها غير عربي، وإنما عرَّبه العرب من تنوخ أو غيرهم، ممن نزلوها في الجاهلية وحولوه إلى وزن عربي، وإنما عربه العرب من تنوخ أو غيرهم، ممن نزلوها في الجاهلية، وحولوه إلى وزن عربي، فليس اسمها مشتقًا من العر بأي معنى من معانيه، والنعمان الذي أضيفت إليه؛ قيل النعمان بن بشير النصارى؛ لأنه اجتاز بها واليًا على حمص من قبل مروان بن الحكم، فمات له ولد بها، فسميت به، وكانت تدعى معرة حمص، كما قال البلاذري. وقيل هو اسم لجبل بها، وقيل عن النعمان: إنه النعمان الساطع الجمال أحد أجداد المعرى من تنوخ، وبالشام معرة أخرى،

لحاجتهم، وسيبويه رجل غريب، وأخصامه أهل البلد والدولة، وإنما الحكم للعارف بالفصيح وغيره، وقد لا يعرف الأعرابى إلا لغته الشاذة"".

وقد أشار فليسوف المعرة[2] في رسالة الغفران إلى ما كان من تحامل الكسائي على سيبويه، إذ يقول: ""وأبو بشر عمرو بن عثمان "سيبويه" قد رحضت سويداء قلبه من الضغن على "على بن حمزة الكسائي" وأصحابه؛ لما فعلوا به في مجلس البرامكة".

لا ريب أن سيبويه كان يفضل الكسائي، وأنه كان أعلم أهل زمانه بالنحو، وحسبه فخرًا أن كتابه كان عمدة النحاة ومرجعهم، وأنه لا يزال إلى اليوم ظاهر الفضل على النحو، فأين الكسائي من ذلك؟ وأما انتصار الكسائي على سيبويه في تلك المناظرة فليس لعلمه الراسخ وفضله في النحو، وإنما كان للأسباب التي أشرنا إليها، وأما سيبويه فقد رجع محزونًا إلى بلدته "البيضاء" بفارس، ولم يطق العيش بعد هذه الهزيمة، فمات كمدًا سنة ١٨٠ هـ، وسنه نيف وأربعون سنة، ويقال: إن الكسائي حين بلغه خبر وفاته قال: ""أخشى أن أكون قد شاركت في موته"".

نشأة النحو العربي:

كانت ملكة اللسان العربي طبيعة في العرب، أي أنهم كانوا ينطقون

وكانت معرة النعمان عامرة في صدر الإسلام، وعصوره الوسطى، وكانت تعد من الثغور والعواصم، حتى استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٠ هـ، فخربوها إلى أن استنقذها منهم عماد الدين زنكي ٥١٩ هـ، وفيها ولد فليسوف الشعراء أبو العلاء المعري.

بكلامهم صحيحًا معربًا، من غير حاجة إلى أداة صناعية تساعدهم في ذلك، وكان كلامهم من أنصح الكلام وأوجزه، كان هذا شأنهم قبل أن يتصلوا بغيرهم من الأمم اتصالًا علميًا ودينيًا وأدبيًا. فلما اجتمع العرب بغيرهم بجامعة الأخوة الإسلامية، وتقلب العرب في الأقاليم المفتوحة، واتخذوها أوطانًا ثانية، وهاجر إلى بلاد العرب كثير من جاليات الأمم المغلوبة، أخذ اللحن سبيله إلى الكلمة الفصيحة، وأخذت ملكة اللسان العربي تفسد شيئًا فشيئًا. بسبب ما أُلقي إلى سمع المتكلمين به من المخالفات اللغوية، التي كان ينطق بها المتعرفون، ومن المعروف أن السمع أساس الملكات الإنسانية، كما يقول العلامة ابن خلدون، ومما يدعو إلى الدهشة والإعجاب أن هذا الرأي يتفق مع ما انتهى إليه علماء اللغات والتربية الحديثة في هذا العصر من أن الأذن من الأدوات الطبيعة في تعليم اللغة.

لقد كان هذا الفساد الطارئ على اللغة النصيحة من أقوى الأسباب التي حملت أهل العلم الحريصين على اللغة والدين، على أن يستنبطوا من مجاري كلام العرب قوانين لتلك الملكة، تكون مطردة، تلك القوانين هي علم النحو، والذي حفز هؤلاء العلماء على وضع النحو هو الحرص على اللغة والدين خوفًا من أن يتطرق اللحن إلى القرآن الكريم والحديث الشريف.

ولم يظهر اللحن في الأول إلا في كلام الموالي[١] والمتعربين الذين أسلموا

---

[١] الموالي: هم ذلك الجيل الذي نشأ من اختلاط العرب بالتزويج من نساء الأمم المفتوحة، كالفرس وغيرهم، وهذا الجيل يحمل ميزات خاصة انفرد بها، وكان بعض الخلفاء من هذا الصنف، فالخيرزانة سبية من (خرشنة) بلدة قريبة ملطية ولدت موسى الهادي، وهارون الرشيد، ابني محمد المهدي، وللموالي أثر عظيم في الثقافة الإسلامية.

منذ عهد الرسول صلوات الله عليه، فقد قيل إن رجلًا من الموالي كان يلحن، فسمعه الرسول فقال صلى الله عليه وسلم: ""أرشدوا أخاكم فقد ضل"".

ولم تكن ألسنة العرب في الجاهلية والإسلام معصومة من الزلل والخطأ الإعرابي، ولكن العلماء تحاشوا أن يسموا ما أثر من هذه الفلتات لحنًا، وسموه شذوذًا؛ لأن ما وقع من ذلك كان من الأفراد الصريحي النسب، الذين لم يلوثوا بمخالطة الأعاجم. ومن العوامل التي ساعدت على ظهور اللحن وانتشار نشوء نابتة من الهجناء [1]والمقرفين[2] من أبوين: أحدهما تأصلت فيه سليقة العرب، والآخر خلو منها، وقد أشرنا إلى أن أعراض اللحن قد ظهرت منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت الأعراض تستفحل كلما توافرت الأسباب الداعية إليها، حتى نشأ اللحن في زمن الدولة الأموية، واستحال ذلك في بعض الأحيان إلى لهجات غريبة، تجري على ألسنة بعض الجماعات غير العربية، ومن أدلة ذلك قصة تاجر الدواب الذي باع جنود المسلمين دواب رديئة، فاستنطقه الحجاج بن يوسف [3] فأجابه:

---

[1] الهجناء: جمع هجين، وهو مَن أبوه عربي، وأمه أعجمية.

[2] المقرفون: جمع مقرف، وهو مَن أبوه أعجمي وأمه عربية، يقول الشاعر: كم بجود مقرف نال العلا وكريم بخله قد وضعه وهو من أبيات الشواهد المشهورة.

[3] الحجاج : هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي، أحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحكامها، وموطد ملك بني أدمية، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع. ولد سنة ٤١ هـ وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطن ثقيف، ثم لحق بروح بن زنباع الجذامي، أحد أعوان عبد الملك بن مروان، فكان في شرطته ثم صار رئيسًا، وأول ما اشتهر من أمره قيادته للجيش الذي وجه لقتال عبد الله ابن الزبير، فقد حاصره بمكة، ثم قتله وأزال ملكه، فولاه عبد الملك العراق، واستخدمه عبد الملك في القضاء على فتن الشيعة والخوارج، فاستعمل

""شريكاتنا في هوازها، وشريكاتنا في مداينها، وكما تجيء تكون""، ومعنى هذه العبارة أن التاجر يريد أن يقول: إن هذه الدواب قد وصلت على ما هي عليه من رداءة من شركائه في بلادهم بالأهواز والمدائن، ولهذا ولغيره أصاب العربية على ألسنة غير العرب تغييرات تناولت صورة وقعها وجرسها وطبيعة تكوينها وتركيبها في الصميم، وقد جرى اللحن والخطأ اللساني على ألسنة بعض الخلفاء والخاصة، فدعا ذلك ذوي الحرص على سلامة اللغة العربية من العلماء إلى التفكير العميق في استنباط الوسائل التي تقيها شر الفساد الذي دب إليها، وكانت ثمرة هذا التفكير وضع علم النحو، ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون "أبو ذؤيب"، صاحب كتاب "تاريخ اللغات السامية": إن الحروب الدينية والسياسية التي قامت في القرن الأول للهجرة؛ كان من نتائجها تأثر العرب بحضارات الأمم التي اتصلوا بها اتصالًا فكريًا أو اشتبكوا معها دمويًا.

وقد أخذ التأثر ينمو ويقوى، فنشأت لخجات كثيرة مختلفة، وظهرت أساليب شتى متباينة، كان من الضروري أن تصل في نهاية أمرها إلى

من الشدة والقسوة وسفك الدماء وإرهاب الأمة العربية ما لم يسمع مثله، وقد أثمرت شدته أمرين عظيمين: الأول يمدح عليه، وهو جمع شتات المسلمين تحت راية واحدة، هي راية بني أمية، والثاني يذم عليه، وهو إذلال الأمة العربية إذلالًا لم تعهده، بما قتل من تخونها، وسلب من حريتها، وأخرس من ألسنتها، فدخلت بعده في طور خضوع وامتثال للحكام المستبدين، ومات سنة ٩٥ هـ في مدينة واسط بالعراق. يقول الأصمعي: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجاج أفصحهم. ومن مآثره اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره، ونسخه عدة مصاحف من مصحف عثمان وإرسالها إلى بقية الأمصار.

الانفصال عن العربية، لولا تأثير القرآن الكريم، الذي لم شعث العرب، وحمل المسلمين جميعًا على أن يحافظوا على اللغة العربية محافظة شديدة، وقد أخذت الطبقات العامية من الشعب العربي في البلدان المفتوحة تلهج بلغة عربية ممزوجة بكثير من الكلمات الأعجمية، وبدأت ألسنتهم تنحرف، حتى في نطق الكلمات العربية، فتنبه علماء المسلمين إلى هذا الخطر الذي يهدد اللغة العربية، وأدركوا أن عدوى هذا الانحراف ستصيب طبقات الشعراء والأدباء والعلماء ورجال السياسة إن هم لم يعملوا على اتقاء أسبابها، فوضعوا القواعد النحوية والصرفية؛ لتكون سياجًا يحول دون تدهور العربية، وأداة من أدوات فهم الكتاب والسنة، ووسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينية، وبخاصة الموالي والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم، ولا الفصحى سليقتهم. يقول ابن خلدون في المقدمة: من أراد الشريعة فلا بد له من علوم اللسان العربي، وهي أربعة: لغة، ونحو، وبيان، وأدب، وأهمها النحو؛ لأنه بيَّن أصول المقاصد بالدلالات، ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة.

ومما أسلفنا يتضح أن الفساد الطارئ على اللغة بسبب غلبة الأمم المفتوحة كان السبب المباشر في وضع علم النحو، وقد حدث ما يشبه ذلك في تاريخ النحو اليوناني، فقد اتسعت رقعة الدولة اليونانية بانضواء بعض الأمم الأجنبية تحت لوائها، فاضطر علماء اللغة اليونانية إلى وضع قواعد تيسر على هؤلاء الأجانب فهم اللغة اليونانية.

ولذلك نقول واثقين: إن السبب الأول في وضع النحو العربي هو

اللحن الذي شاع على ألسنة المستعربين وغيرهم، وسبب آخر وهو الرغبة في تيسير تعليم العربية لأبناء الأمم المفتوحة.

الواضع الأول للنحو العربي:

ذهب أكثر الرواة من علماء اللغة والنحو إلى أن "علي بن أبي طالب" كان أول من أشار بوضع النحو، ويؤيدون رأيهم براوية أبي الأسود[1]، فقد حدثوا أنه قال: دخلت يومًا على أمير المؤمنين علي بن أبى طالب فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين، فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فقد بمخالطة هذه الحمراء، يعني: الأعاجم، فأردت أن أضع شيئًا يرجع إليه العرب، ويعتمدون عليه، ثم ألقى إلى الرقعة، وفيها مكتوب: الكلام: اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما أفاد معنى، وقال لى: امح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم – يا أبا الأسود – أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس – يا أبا الأسود – فيما ليس بظاهر ولا مضمر، والمراد به الاسم المبهم.

---

[1] أبو الأسود: هو ظالم بن عمرو بن سفيان، كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب عليًا بن أبي طالب، وشهد معه واقعة (صفين) وكان من أكمل الناس رأيًا، وأسداهم عقلًا، وهو أول من وضع النحو، والروايات في سبب وضعه كثيرة، والذي نُسب إليه أنه أول من وضع الشكل على أواخر الكلمات بالنقط، وجعله يخالف مداد الكتابة، وكان مبخلًا يحتج للبخل ويقول: لو أطعنا المساكين في أقوالهم لكنا أسوأ حالًا منهم. وتوفي بالبصرة سنة ٦٩ هـ عن خمسة وثمانين عامًا. ويقول ابن الفصاع الدونر في كتابه (رهط أبي الأسود): وهناك قبيلة أخرى تسمى كعب، والنسبة إليها دؤلي، وكان متشيعًا يقم بالبصرة، مع أن أهلها من الناصبة الذين يعادون عليًا من أيام وقعة الجمل، ولكن علم أبي الأسود أنسى البصريين تشيعه.

قال أبو الأسود: ثم وضعت بابيّ النعت والعطف، ثم بابيّ التعجب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب "أن وأخواتها"، ما خلا لكن، فلما عرضتها عليه أمرني بضم لكن إليها، وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه "رضيّ الله عنه"، إلى أن حصلت ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت، فلذلك سميّ علم النحو.

ويقول محمد بن سلام الجمحي [1] المتوفى سنة ٢٣٢ هـ في مقدمة كتابه "طبقات الشعراء": ""وكان أول من أسس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي""، ثم قال: ""ووضع أبواب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم""، ثم قال: ""وجاء عبد الله بن إسحق الحضرمي، فكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل"".

ثم يأتي بعد ابن سلام؛ أبو محمد مسلم بن قتيبة [2] المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

[1] محمد بن سلام الجمحي أحد الإخباريين والرواة كما قال فيه صاحب الفهرست، ومن جملة أهل الأدب، كما قال فيه النباري صاحب كتاب (نزهة الألباء في طبقات الأدباء)، وهو نحوي أخذ النحو عن حماد بن سلمة، ولغوي يعد في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين، وأحد كبار نقدة الشعر، ألف كتابًا أو كتابين في طبقات الشعراء، وتوفي سنة ٢٣١ هـ.

[2] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري اللغوي النحوي، سكن بغداد وأخذ بها عن إسحق بن راهويه وأبي حاتم السجستاني، وروى عنه ابن درستويه الفارسي. صنف كتبًا مفيدة، منها كتاب المعارف وأدب الكاتب وغريب القرآن الكريم، وغريب الحديث، وعيون الأخبار، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، والشعر والشعراء. ولد سنة ٢١٣ هـ في بغداد

فيقول: ""وأبو الأسود يعد في الشعراء والنابغين والمحدثين والبخلاء والمفاليج لأنه أول من عمل في النحو كتابًا""، وهذا أبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ يقول: ""أول من وضع العربية، ونقَّط المصاحف أبو الأسود، وسئل عمن أرشده إلى الوضع في النحو، فقال: تلقيته عن علي"".

وبعد المبرد نجد شخصية لها قيمتها العلمية، من حيث الدقة والأمانة في النقل، تلك هي شخصية العالم المحقق محمد بن إسحق النديم[١] المتوفى سنة ٣٨٥ هـ، فنراه يتوسع في الرواية، وينقل عن غيره من العلماء، فيقول: زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضيّ الله عنه. ويأتي بعد ابن النديم عالم آخر هو أبو الطيب عبد الواحد

وقيل في الكوفة، وتولى قضاء الدينور مدة فنسب إليها، وتوفي على أصح الأقوال في منتصف رجب سنة ٢٧٦ هـ.

[١] النديم: هو أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق الوراق النديم، ويقول ياقوت: هو محمد بن إسحق النديم. ولم يهمل التاريخ رجلًا نابغة فذًا بين العلماء كما أهمل النديم، فابن خلكان لم يترجم له، مع أنه ترجم لمن هم دونه، وصاحب قوات الوفياتلم يتعرض له بقليل ولا كثير، والذين ترجموا له لم يأتوا بما يشفي الغلة، فياقوت الحموي يقول عنه في معجم الأدباء: هو محمد بن إسحق النديم، كنيته أبو الفرج، وكنية أبيه أبو يعقوب، مصنف كتاب الفهرست، الذي جود فيه واستوعب استيعابًا يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه بجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقًا يبيع الكتب، وذكر في مقدمة الفهرست أنه صنف في سنة ٣٧٧ هـ. وله من التصانيف فهرست الكتب وكتاب التشبيهات. وكان شيعيًا معتزليًا، وقد توفي سنة ٣٨٨ هـ كما يقول ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، ويذكر ابن النجار في تاريخ بغداد أنه مات لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ هـ.

بن علي المتوفى سنة ٣٥٩ هـ، فيقول: ""كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود، أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب، رضيّ الله عنه، وكان أعلم الناس بكلام العرب

وأبو الأسود هو أول من نقط المصحف، وكان الناس يختلفون إليه؛ ليتعملوا العربية"". ونرى عالمًا نحويًا يعاصر أبا الطيب هو أبو سعيد السيرافي[1] المنوفي سنة ٣٨٩ هـ، فيروي لنا رأيًا لا يخرج عن آراء العلماء السالفين، إذ يقول: ""أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي"".

ومن معاصري السيرافي عالم لغوي آخر وهو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي[2] المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، فيقول ما يؤيد روايات معاصريه، ومما قاله: ""وبلغنا أن أبا الأسود الدؤلي وضع وجوه العربية، وقال للناس انحوا نحوًا، فسميّ نحوا"".

---

[1] السيرافي: هو أبو سعيد الحسن بن عبلله الصيرفي النحوي، كان واسع العلم، عريض الجاه، تولى قضاة بغداد، شرح كتاب سيبويه، ونجد تعليقات من هذا الشرح على حاشية الطبعة الأميرية لكتاب سيبويه، وله أيضًا كتاب ألفات الوصل والقطع، وكتاب أخبار النحويين البصريين، وصنعة الشعر، وشرح المقصورة الدريدية. وأصله من سيراف بفارس. توفي ٣٦٨هـ.

[2] الأزهري: هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي اللغوي، كان فقيهًا، وغلبت عليه اللغة فاشتهر بها، قرأ على ثعلب وابن دريد ونفلويه، ورحل فطاف أرض العرب في طلب اللغة، وقد يسر له ذلك وقوعه في أسر قوم من أهل البادية لا يكادون يلحنون، فبقي في أسرهم دهرًا طويلًا يشدو بالدهاء، ويريع بالسمان، ويقبظ السترين (واديان بجبال ربيعة) فاستفاد من معاشرتهم كثيرًا، وأدخل في كتابه التهذيب كل ما استفاده منهم، وجرا فيه على ترتيب العبر للحيل، وهو موجود غير مطبوع، وبدار الكتب المصرية جزءان من أوله يسمى الثاني مادة ذرا، ويشتملان على ألفي صفحة، توفي سنة ٢٧٠ هـ وهو منسوب إلى جده.

هؤلاء النحاة عاشوا في القرون الثاني والثالث والرابع، وقد أجمعوا كلهم على أن أبا الأسود وضع اللبنة الأولى في علم النحو، وهناك علماء آخرون، عاشوا في قرون متأخرة يذهبون مذهب من سبقهم، ومنهم القفطي[1] المتوفى سنة ٦٤٦ هـ، والحافظ بن حجر المتوفى ٨٥٢ هـ، والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ. ولم يكن صنيع هؤلاء العلماء غير سرد آراء المتقدمين وعرض رواياتهم، وتأييدها في غير تمحيص ولا مناقشة، وبالرغم من ذلك فإنه لا يمكن أن ينعقد إجماع هذه الكثرة من الرواة والعلماء إلا على حق، ولقد أصبح الآن في مرتبة اليقين أن أبا الأسود كان إلى حد ما صاحب الفكرة الأولى في علم النحو. ولا يضعف من شأن هذا الرأي ما ذهب إليه الأستاذ إبراهيم مصطفى، صاحب كتاب ""أحياء النحو""، في مقال له نشر بمجلة كلية الآداب ١٩٤٨، بعنوان ""أول من وضع النحو""، إذ يرى أن أبا الأسود كانت مهمته ضبط المصحف، وكان العرب في ذلك الحين يسمون ضبط الكلمات نحوًا أو العربية، فإذا اختلفوا في كلمة قالوا: النحو كذا أو العربية كذا، ومن هنا التبس الأمر على الرواة، فنسبوا النحو أي وضعوا القواعد النحوية إلى أبي الأسود، ولم يكن ما قام به أبو الأسود إلا نقط المصحف، ولم يكن المراد بالنحو المنسوب إليه هذا العمل على سبيل العرب ومسمياتها في القول.

---

[1] القفطي هو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف وزير حلب، ولد بمصر في مدينة قفط من بلاد الصعيد، وبعد أن تفقه في العلم أقام في بيت المقدس، ثم تولى القضاء في حلب أيام الملك الظاهر، وسماه القاضي الأكرم أو الوزير الأكرم، وله كتاب: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، وهو مطبوع بمصر، وتوفي سنة ٦٤٦ هـ.

وقد جاء في اللسان النحوي: انتحاء سمة العرب في القول، ويستدل على ما ذهب إليه بأن سيبويه لم يورد في كتابه رأيًا نحويًا واحدًا لأبي الأسود، ولا لطبقتين من بعده، وأقدم من نسب إليهم عبد الله بن إسحاق الحضرمي، ذكره في كتابه ست مرات، ويقول: إن ابن إسحاق الحضرمي[1] أقدم من أبي الأسود، وأنه يكون بهذا أول من نهج سبيل القواعد النحوية. ولكن المرحوم العلامة الشيخ أحمد الإسكندري[2] يقول: إن عبد الله بن إسحاق الحضرمي هذا كان يختلف إلى خلفه أبي الأسود، ويأخذ عنه، وأن الذي ينسب إلى الحضرمي حقًا أنه أول من علل النحو، ولعل هذا هو السر في أن سيبويه قد نقل عن الحضرمي ولم ينقل عن أبي الأسود، لأن ما وُضع في عهد أبي الأسود كان شيئا أوليًا نقله الأخذون عنه وزادوا عليه، وامتاز الحضرمي بالتعليل، ووضع القياس وهو من بين الآخذين عن أبي الأسود، سواء أكان عمل أبي الأسود مقصورًا على شكل المصحف بالنقط أم كان واضعًا لبعض أبواب النحو، فالذي لا ريب فيه أن أبا الأسود هو واضع اللبنة

---

[1] الحضرمي: هو عبد الله بن إسحاق الحضرمي النحوي، كان رأس الطبقة الثانية من نحاة البصرة، ومن أسبق العلماء في أفراد الكتب حول مسألة من المسائل، يقول فيه صاحب المزهر: إنه كان أعلم أهل البصرة وأمثلهم، وفرع النحو وقاسه، وتكلم في الهمس حتى عمل فيه كتابًا مما أملاه، وتوفي سنة ١١٧ هـ.

[2] الإسكندري: هو المرحوم العلامة اللغوى الأديب الشيخ أحمد الإسكندري، كان أستاذ اللغة والأدب بدار العلوم، ثم أستاذًا للأدب بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، ثم صار عضوًا بالمجمع اللغوي، وما من أديب أو لغوي في هذا العصر إلا وقد تتلمذ عليه أو على كتبه، وله مؤلفات في تاريخ الأدب من أشهرها كتاب الوسط في الأدب العربي وتاريخه، واشترك في وضع كتب النحو والمطالعة والأدب بوزارة المعارف، وأثره في مجمع اللغة يذكره العارفون بالثناء والإعجاب.

الأولى في عالم النحو؛ لأن نقط المصحف على الأقل – وهو الذي ثبتت نسبته إليه بإجماع الرواة –كان عملًا نحويًا، والنقط الذي وضعه أبو الأسود كان خاصًا بالشكل الإعرابي.

والإعراب هو محو النحو العربي وأساس فلسفته، ومما يؤيد أن أبا الأسود هو واضع اللبنة الأولى في علم النحو؛ ما قرره الأستاذ حسن العون في كتابه ""اللغة والنحو""، فإنه بعد أن بيَّن إجماع الرواة على نسبة الوضع الأول إلى أبي الأسود، أخذ يبرهن على صحة إجماعهم بأدلة مادية منها ذكر نبأ العصور على مصحف قديم مخطوط بجامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط[1]، ويعد هذا المصحف أقدم مصحف مخطوط بدار الكتب المصرية، وواضح بهذا المصحف العمل الذي قام به أبو لأسود، وهو شكل المصحف بمداد أحمر على النحو الذي نسبه إليه الرواة ثم العمل الذي قام به نصر بن عاصم وهو نقط المصحف بمداد أسود لمنع التصحيف، وهو على النحو الذي نسبه إليه الرواة، ولا شك

[1] الفسطاط: مدينة أسسها عمرو بن العاص سنة ٢٢ من الهجرة بأن بنى مسجده المشهور وحوله منازل جنوده في موضع شمالي قصر الشمع المعروف عند العرب بحصن بابليون أو باب إيبلون (Babyion) نقلًا عن الاسم اليوناني، وكانت حاضرة مصر ومقر الولاة والعمال إلى عهد تأسيس القاهرة، وفيها مزارات بعض الصحابة والصالحين منها ضريح محمد بن أبي بكر، ومعاوية بن خديج، وكان جامع عمرو مسجدًا وديوانًا للخراج، يجلس فيه العمال لتوزيع الأراضي كل عام قبل الفيضان، ومعنى الفسطاط المدينة الجامعة، وقد سميت هذه المدينة فيما بعد في كتب التاريخ الإسلامية (مصر)، فإذا قالو مصر والقاهرة فالإشارة إلى هذه المدينة وإلى عاصمة الديار المصرية الآن وهي لا تعرف هذا إلا بمصر القديمة أو العتيقة.

أن هذا الأثر المادي دليل قاطع على تأييد نسبة الوضع الأول للنحو العربي إلى أبي الأسود، ثم دليل آخر مادي، وهو تلك الصفحات الأربع التي كانت في مكتبة أبي بعرة محمد بن الحسين، ورآها صاحب الفهرست، أثبت وجودها.

وابن النديم معروف بدقته في البحث، وأمانته في النقل والرواية، ولا يقلل من أهمية نسبة هذه الصفحات إلى أبي الأسود طعن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، صاحب كتاب "تاريخ آداب العرب" في صحة هذه النسبة، إذ يقول إن أبا الأسود لم يكتب هذه الصفحات بيديه، بل كتبها تلاميذه وتابعوه، وأما التي كتبها أبو الأسود فشيء آخر، فهو صفحات في الأدب، تعرف بتعليقة أبي الأسود. والذي لا شك فيه أن الصفحات الأربع التي اشتملت على بعض أبواب النحو سواء أكان الذي كتبها بنفسه أبو الأسود أم تابعوه وتلاميذه – لأن الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن الكتابة على الأقل قد تمت بإرشاده وتوجيهه، وأن ما كتب فيها كان نقلًا عن أبي الأسود، وإذا كان سيبويه لم ينقل رأيًا لأبي الأسود، ولم يشر إليه في كتابه كما قال الأستاذ إبراهيم مصطفى، فالجواب عن ذلك هو أن عمل أبي الأسود كان بمثابة وضع الأساس الأول للنحو العربي، وكان هذا الأساس ساذجًا، يمثل فكرة النحو في أول طور من أطوارها، وأن من جاءوا بعده قدموا في إطناب هذه الفكرة، ووسعوا البحث، ووضعوا أسس التعاليم والقياس، وفي عصر الطبقة الثالثة من نحاة البصرة برز الخليل بن أحمد فكان سابق حلبة هذه الطبقة في

استخراج مسائل النحو وتصحيح قياسه، وكان أستاذًا لسيبويه، لذلك جاء كتاب سيبويه ترديدًا لآراء أستاذه، ولم ينقل عمن سبقه إلا قليلًا، ولو أننا فرضنا أن عمل أبي الأسود كان مقصورًا على شكل المصحف، لكان ذلك دليلًا كافيًا على أنه هو الواضع الأول لعلم النحو، وقد سبق أن أشرنا إلى أن نقط المصحف الذي نسب إلى أبي الأسود كان لشكل الكلمات وإعرابها اتقاءً للحن، وهذا هو الإعراب الذي هو قضب الرحى في النحو العربي.

المدارس النحوية:

١- مدرستا الكوفة والبصرة: كان البصرية أول من فكر في وضع قواعد النحو، وكان أبو الأسود بصريًا، وقد نشأت طبقة من العلماء كانوا تلاميذ أبي الأسود، منهم عنبسة[١] الفيل، ونصرين[٢] عاصم، وميمون[٣] الأقرن، وهؤلاء علماء الطبقة الأولى البصرية، ثم جاء من بعدهم فريق من العلماء اشتغلوا بالنحو، من هؤلاء: عبدلله بن إسحق[٤] الحضرمي،

---

١ هو عنبسة ابن معدان المهري المعروف بعمبسة الفيل، منسوب إلى مهرة بزنة قصعة وهي قبيلة في اليمن.

٢ نصرين بن عاصم الليثي توفي سنة ٨٩ هـ من علماء النحو والقراءات الآخذين عن أبي الأسود، ومن علماء الطبقة الأولى البصرية.

٣ ميمون الأقرن: من علماء الطبقة الأولى البصرية.

٤ عبد الله بن إسحاق الحضرمي من علماء الطبقة الثانية من مدرسة البصرة، توفي سنة ١١٧ هـ، وقد روى أبو عمر بن العلاء أن ابن أبي إسحاق الحضرمي سمع الفرزدق يقول:

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من الناس إلا مسحتا أو مجلف

فقال ابن أبي إسحاق: على أى شيء ترفع مجلف؟ فقال: على مايسوءك وينوءك. قال أبو عمر: فقلت للفرزدق: أصبت وهو جائز عن المعنى.

وعيسى[1] بن عمر الثقفي، وأبو عمر بن العلاء، وأبو الخطاب الأخفش الكبير، وقد أدرك هؤلاء العلماء عصر الدولة العباسية ما عدا أستاذهم الأول، وقد برزت هذه الطائفة في النحو، وقرأت القرآن، وفنون الأدب. وكان أبو إسحق الحضرمي أول من علل النحو. وكثيرًا ما نفد شعر الفرزدق وخطَّأه، فأوغر بذلك صدر الفرزدق وأغضبه، فهجاه، وهؤلاء العلماء يمثلون الطبقة الثانية من نحاة البصرة، وقد أدرك رجالها العصر العباسي ما خلا أبا إسحاق الحضرمي الذي هجاه الفرزدق.

واشتهر من علماء الطبقة الثانية عيسى بن عمر الثقفي، فقد كان ثقة عالمًا بالنحو والعربية والقراءة، وكان فصيح اللسان، يتشدق في كلامه، ويتكلم بملء شدقيه، ويعدل عن الألفاظ السهلة إلى الألفاظ الحوشية الكبيرة، وألَّف في النحو كتابين هما "الجامع" و"الأكمال"، ومن الأسف أنه لم يوقف لهما على أثر، وهو شيخ الخليل وسيبويه، وأبي العلا، وأول من هذب النحو ورتبه، وعلى طريقته صار سيبويه ومن بعده وهو بصري ولم يكن ثقفيًا، وإنما نزل في ثقيف فنسب إليها، وتوفي سنة ١٤٩ هـ، وأما عمرو بن العلاء فكان نابغة زمانه، والعالم المشهور في علم القراءة واللغة العربية، بل انكب على جمع اللغة والأدب والأخبار والأشعار، وقد جمع من ذلك قدرًا كبيرًا، وقيل إن ما كتبه في ذلك من كراسات كان يملأ بيتًا إلى سقفه، وقد راقته طريقته أهل زمانه، فأقبل عليه الطلاب من كل فج.

---

[1] كان عيسى بن عمر متشددًا متقعرًا، وكان يخطِّئ المشهورين كما فعل ابن الحضرمي، ومن الذين خطأهم النابغة، وهو الذي قال حين سقط عن حماره، واجتمع حوله الناس: ((مالكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا)).

بعد الطبقة الثانية من مدرسة البصرة، أخذ علماء الكوفة يشتغلون بالنحو، فأخذوا هذا العلم عن أبي عمر بن العلاء ومعاصرين من علماء البصرة، وبذلك نشأت طائفة من علماء الكوفة، اشتغلوا بالنحو، وكانوا الطبقة الأولى من مدرسة الكوفة، ومن رجال الطبقة الأولى الكوفية: معاذ الهراء وكان أول من تكلم في الصرف والاشتقاق، وقد صنف كتابًا في النحو، غير أنه لم يصل شيء منها إلى أيدي الناس، ومن هذه الكتب كتاب "الفيصل"، وهو أول كتاب في نحو الكوفيين، وعليه قرأ الكسائي، وعنه روى، وكان شيعيًا، له شعر كشعر النحاة، ومات في سنة ١٧٨ هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة، ولقب بالهراء، لأنه كان يبيع الثياب الهروية[١].

كان علماء الكوفة وفي مقدمتهم معاذ الهراء؛ أسبق إلى الاشتغال بقواعد الصرف من علماء البصرة، ثم أبو جعفر محمد الرؤاسي المتوفي سنة ""١٩٠ هـ""، وقيل: هو أبو جعفر محمد بن أبي سارة بن أخي معاذ الهراء والياء في الرؤاسي للمبالغة، والعرب تستعمل صيغة فعال، وتنسب إليها بالياء للمبالغة. كان أستاذ الكسائي والفراء، وقد رُوِيّ عنه أنه قال: ""أرسل إليّ الخليل بن أحمد يطلب كتابي، فبعث به إليه فقرأه، ووضع

[١] نسبة إلى هراة (HERAT) وهي مدينة قديمة بناها الإسكندر المقدوني على نهر أورويس (Arius) المعروف الآن بنهر هراة، وسماها ارية Aria باسم نهرها أريوس، فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمرو، وكان قاعدة الدولة الصفارية التي ظهرت في بسجستان سنة ٨٦٧ م، وكانت من أجمل المدن وأعظمها، حتى خربها التتار سنة ٦١٨ هـ. توفي فيها الفخر الرازي صاحب كتاب (مفاتيح الغيب) وفي التفسير وغيره، والنسبة إليها هروية على غير قياس، وإلى ارية هذه تنسب السلاسة الآرية واللغة الآرية التي هي أصل اللغات الأوروبية.

كتابه""، ولكننا لا نعلم ما هو كتاب الرؤاسي الذي استعاره الخليل. وقيل سُميّ الرؤاسي لعظم رأسه، ويقول السيوطي[1] في "لب اللباب": إن الرؤاسي بتخفيف الواو نسبة إلى بطن من قيس عيلان أو من همدان، ويقول أستاذنا المرحوم السكندري: إن الكتاب الذي وضعه الرؤاسي هو الكتاب الفيصل وهو أول كتاب في نحو الكوفيين.

كان النحو في عهد الطبقتين الأولى والثانية من مدرسة البصرة في دور التكوين، وكان علم الطبقة الأولى محفوظًا في الصدور، مرويًا على الألسنة، وكان تدوينهم لمسائل هذا العلم لا يخرج عن أوراق لم تبلغ مرتبة الكتب المنظمة المفصلة، ويمكن أن يقال: إنها كانت كتبًا مختصرة، فقد روى بعض الثقاة مختصرًا يُنسب إلى أبي الأسود لا يزيد على أربع ورقات، والذي نستطيع أن نجزم به أن علماء الطبقتين الأولى والثانية من المدرسة البصرية كانوا لا يضعون القواعد إلا بعد الاستقراء الدقيق، وتتبع الكثير مما نطق به العرب، وكان في أثناء ذلك إذا وقعوا على شيء من الأمثلة يخالف

[1] هو عبد الرحن بن الكمال أبي بكر محمد بن سابق الدين، ولد سنة ٨٤٩ هـ ونشأ يتيمًا، وكان ذكيًا قوي الحافظة. فحفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، ثم تفقه بعلوم عصره، وبلغ عدد شيوخه مائة وخمسين شيخًا. وشرع في التأليف وهو في السابعة عشر من عمره ورحل في طلب العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب. وبلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة. ومنها في التاريخ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، وفي الأنساب لب اللباب في تحرير الأنساب، وفي اللغة المظهر، وفي النحو الأشباه والنظائر، وجمع الجوامع مع شرحه المسمى همع الهوامع، والاقتراح في أصول النحو، والبهجة المضية في شرح الألفية، والفتح القريب على المغنى اللبيب، وفي العلوم الدينية الإتقان في علوم القرآن. توفي سنة ٩١١. ونسبته إلى أسيوط.

الكثير من الشواهد، كان يتخذونه وسيلة لتخطئة العرب والطعن عليهم، وقد وقع ذلك من الحضرمي وعيسى بن عمر.

وقد نبغ من علماء الطبقة الثالثة من مدرسة البصرة أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو سابق حلبة هذه الطبقة في استخراج مسائل النحو، وتصحيح قياسه. ولد بالبصرة ونشأ بها، وأخذ النحو والقراءة والحديث عن أبي عمر بن العلا، وعيسى بن عمر، وسمع الفصيح، وجمع الغريب، حتى نبغ في اللغة نبوغًا لايعرفه التاريخ لغيره، وأخذ عن سيبويه ونفر من الأئمة كالنضر[1] بن شميل، ومؤرخ السدوسي[2] وبقيّ بالبصرة مقيمًا طول حياته على فاقة وتقشف نزوعًا بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجافيًا بها عن مطارح الهوان. قيل إن سليمان بن علي

---

[1] هو النضر بن شيميل أخذ عن الخليل. وحكى عن نفسه قال: أقمت بالبادية ٤٠ سنة. وعنه أخذ أبو عبيد القاسم بن سلام. وصنف كتبًا كثيرة. وهو الذي سمر ليله عند المأمون فسمعه يروي الحديث: إذا تزوج الرجل المرأه لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز . وأورده المأمون بالفتح فأصلحه له النضر، وقال له: السداد بالفتح القصد في الأمور، والسداد بالكسر: البلغة وما يسد الحاجة، وروى له قول العرجى: أضاعونى وأي فتاة أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر وتوفي سنة ٢٠٣ هـ.

٢ هو أبو فيد النحوي البصري أخذ عن الخليل. كان يقول: قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس في العربية، وإنما كانت معرفتي قريحة. وكان له شعر، ومن أملحه:

روعت بالعين حتى ما اراع له وبالمصائب من اهلي وجيراني

وتوفي سنة ١٩٥ هـ يوم توفي أبو نواس. والفيد في الأصل ورد الزعفران أو هو الزعفران نفسه. ومؤرج اسم فاعل من قولهم أرج بين القوم أى أغرى. وكان مؤرج يقول: اسمي وكنيتي غريبان.

وجّه إليه من الأهواز[1] لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا قفارًا، وقال له: ""كل فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان"". وانكب ذلك العالم العظيم على العلم، يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله.

رويّ في سبب وفاته: أنه قال: ""أريد أن أضع نوعًا من الحساب تذهب به الجارية إلى البقال فلا يظلمها""، فدخل المسجد، وهو يُعمل فكره، فاصطدم في سارية صدمة شديدة، ارتج منه مخه رجة أودت بحياته. وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه، وكان على علم بالموسيقا ووضع فيها أول كتاب على غير إلمام باللغة الأجنبية، ولا دراية بآلة موسيقية، وساعده بصره بالنغم في اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه، فضبط أوزان الشعر، وكانت خمسة عشر وزنًا "بحرًا"، وحصرها في دوائرها الخمس، ووقعها على المقاطع والحركات، وشغل بذلك نفسه ووقته، حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها، فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال، فظن به مسًّا من خبال، فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتنى ... وعلمت أنك جاهل فعذرت

[1] الأهواز من بلاد خوزستان، وخوزستان قسم من بلاد الفرس بين بلاد الجبال شمالًا وبحر فارس جنوبًا والعراق غربًا وفارس شرقًا. ومن أشهر مدنها الأهواز. ومنها الحسن بن هانئ الشهير بأبي نواس. وابن السكيت وأبو العيناء صاحب النوادر والشعر والأدب المتوفى سنة ٢٧٣ هـ.

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر فكرة المعاجم اللغوية بوضعه كتاب "العين"، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل الآن، وقد ألّف كتاب "العين"[1] بخاراسان[2] وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف، ووافته منيته دون إتمامه، فأتم ما فيه من نقص بعض تلاميذه، ولذلك جاء الكتاب مضطربًا مختلًا، وله كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب النقط والشكل، وكتاب الإيقاع. والخليل؛ وإن ذاعت شهرته في تصحيح القياس، وتعليل النحو، واستنباط مسائله؛ إلا أنه لم يترك مؤلفًا مشهورًا، ويظهر أنه وجه جهوده كلها إلى اللغة، وأثره في النحو يتجلى فيما نقله عنه تلميذه سيبويه في كتابه.

وقد أخذت فكرة القياس في النحو تنمو نموًا مطردًا منذ عهد الطبقة الثالثة البصرية والطبقة الأولى الكوفية. وكان الخليل فيما أسلفنا إمام هذا العصر في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله. وفي كتاب

---

[1] سمى هذا الكتاب كتاب (العين) لأنه بدئ بالكلام على حرف العين، وترتيب الخليل لحروف المعجم في كتابه هذا يسير وفق مخارجها، فبدأ بحروف الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفتين، وقد سار في حصر كلمات اللغة بطريقة حسابية، فوجد أن الكلمات الثنائية تنصرف على وجهين، والثلاثية تنصرف على ستة أوجه، والرباعية تنصرف على أربعة وعشرين وجهًا، وبيان ذلك أن حروفها الأربعة ضربت في وجوه الثلاثي الصحيح، والخماسية تنصرف على مائة وعشرين وجهًا، لأن الحروف الخمسة ضربت في وجوه الرباعي. وهي أربعة وعشرون. ثم أوضح المهمل والمستعمل من الكلمات. وشرح معاني المستعمل. وجمع كل ما كان معروفًا في زمانه من أحكام اللغة وقواعدها وشروحها، وساق في ثنايا الشرح كثيرًا من الشواهد من شعر العرب.

[2] إقليم من أكبر الأقاليم الفارسية، فتحه الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب.

العين شيء من هذه البحوث مختلط بالمباحث اللغوية. ولم تأت الطبقتان الرابعة البصرية والثانية الكوفية إلا وقد أخذت علوم اللغة العربية يتميز بعضها من بعض، وأخذ كل فرع من فروع العربية يتجه اتجاهًا مستقلًا في البحث، وأخذ فريق من العلماء ينقطعون إلى بعض هذه الفروع.

كان شيخ الطبقة الرابعة من مدرسة البصرة هو إمام النحويين قاطبة وحجة البصريين "سيبويه"، وقد انقطع هذا الشيخ الجليل إلى النحو، فوضع فيه كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد، وكان أول كتاب جامع لأصول النحو، وصار فيما بعد عمدة النحاة في كل عصر، فانكب العلماء على قراءته وشرحه واختصاره، وفي عهد هذه الطبقة بدأ التنافس الشديد بين المذهبين البصري والكوفي، وعُقدت المناظرات بين الفريقين، واشتد الجدل والنقاش في تحقيق المسائل النحوية وغيرها، وكان من ذلك ما وقع من التناظر بين شيخي المذهبين في ذلك العصر: سيبويه رأس نحاة البصرة في عهد الطبقة الرابعة البصرية، والكسائي إمام الطبقة الثانية الكوفية، وقد أشرنا فيما سبق إلى الظروف التي أحاطت بهذه المناظرة، وما قام به الكسائي مما لا يتفق مع أساليب التناظر العلمي المبني على تمحيص الحقائق، والانتصار إلى الحقيقة العلمية من حيث هي حقيقة، فقد كان كل ما يسعى إليه الكسائي أن ينتصر على شيخ البصرة بالحق أو بالباطل، وقد كان له ما أراد، وقد سن الكسائي بذلك سنة سيئة، وجعل الغرض والشهوة فوق التحقيق العلمي والرأي السديد في تقرير مسائل العلم، ولكن العلماء في ذلك العصر قد تنبهوا

إلى دسائس الكسائي، فوضعوا كلًا من العالمين في منزلته اللائقة به، أما سيبويه فقد سار ذكره في الآفاق، وأصبح اسمه علمًا على النحو، فما كاد يذكر سيبويه حتى يتنبه الناس إلى قواعد النحو في كل زمان ومكان.

ومما يُروى أن الكسائي بالرغم مما فعله مع سيبويه؛ كان على درجة من الفضل، وأنه يتميز بقراءة خاصة، فعُدَّ من القراء السبعة، وقد بلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئًا، فأقبل ذات يوم على إخوانه من طلاب العربية، فقال متأوهًا من مشي طويل: ""لقد عييت""، فقالوا: ""أتجالسنا وأنت تلحن؟""، فقال: ""كيف لحنت؟""، فقالوا: ""إن كنت أردت من التعب، فقل: أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل: عييت مخففة""، فأنف من هذه الكلمة، وقام من فوره يسأل عمن يعلم النحو، فلازم معاذ الههراء، ثم الرؤاسي من نحاة الكوفة، حتى حصل ما عندهما، ثم خرج إلى البصرة، قاصدًا الخليل بن أحمد، فكان يجلس في حلقته للأخذ عنه، ويقال إنه سأل الخليل يومًا: ""من أين لك هذا العلم؟""، فقال الخليل: ""من بوادي الحجاز ونجد وتهامة""، فخرج الكسائي إلى البادية، وطاف في كل حي من أحيائها، وسمع فصحاءها حتى استكمل حظه من الرواية، واستوفي قسطه من اللغة، ولما رجع من البادية استقدمه المهدي، واستخلصه لنفسه، ثم أقامه الرشيد مؤدِبًا لولده الأمين، وعظمت مكانته عنده، وانتهت إليه الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد، ومن كتبه كتاب "معاني القرآن"، وكتاب "النحو"، وكتاب "النوادر"، وكتاب "الهجاء"، ورسالة في لحن العامة.

كان لعلماء كل من المصرين تلاميذ يتلقون عنهم، فإذا ما كف العلماء عن البحث لسبب من الأسباب خلفهم تلاميذهم في منصب الأستاذية، وأخذوا يقررون المدارس النحوية، وتعددت طبقات النحويين، فإذا ما انقرضت طبقة قامت على أنقاضها طبقة أخرى، ولذلك قامت الطبقة الخامسة من نحاة البصرة، تقابلها الطبقة الثالثة من نحاة الكوفة، وإمام البصريين في هذه الطبقة هو الأخفش الوسط، وهو الذي تولى نشر كتاب سيبويه وشرحه ونقده، ويعاصره من الكوفيين أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ، وهو صاحب الكسائي، وقد أشرنا إلى سيرته، ويقال: إنه اجتمع يومًا بأبي عبد الله الجرمي المتوفى سنة ٢٢٥ هـ، فقال الفراء: ""أخبرني عن "زيد منطلق" لمَ رُفع زيد؟""، فقال الجرمي[١]: ""رُفع بالابتداء""، فقال الفراء: ""فأظهره""، قال ""هو معنى لا يظهر""، قال: ""فمثله""، قال: ""لا يمثل""، قال الفراء: ""ما رأيت كاليوم عاملًا لا يظهر ولا يتمثل""، فقال له الجرمي:

""أخبرني عن قولهم "زيد ضربته" لِم رفعتم زيدًا؟""، قال: ""بالهاء العائدة على زيد""، قال الجرمي: ""الهاء اسم، فكيف يرفع الاسم؟""، قال الفراء: ""نحن لا نبالي من هذا، فإنا نجعل كل واحد من المبتدأ والخبر عاملًا في صاحبه في نحو زيد منطلق""، قال الجرمي: ""يجوز أن

---

[١] الجرمي: نسبة إلى عدة قبائل، كل واحدة منها تسمى جرما، ومنهم جرم بن ريان. ينسب إليهم أبو عمر صالح بن إسحق النحوي. وهو من البصرة. قدم من بغداد وأخذ النحو عن الأخفش وغيره. ولقي يونس بن حبيب. ولم يلق سيبويه. وله في النحو كتاب غير موجود، يسمى (الفرخ)، أي فرخ كتاب سيبويه أو غريب كتاب سيبويه، وتوفي سنة ٢٢٥ هـ.

يكون كذلك في نحو "زيد منطلق"، لأن كل واحد من الاسمين مرفوع في نفسه، فجاز أن يرفع الآخر، وأما الهاء في ضربته ففي محل نصب، فكيف ترفع الاسم؟"".

فقال الفراء: ""لم نرفعه بالهاء، وإنما رفعناه بالعائد""، فقال الجرمي: ""وما العائد؟""، قال الفراء: ""معنى""، قال الجرمي: ""أظهره""، قال: ""لا يظهر""، قال: ""مثله""، قال: ""لا يتمثل""، قال له الجرمي: ""لقد وضعت فيما فررت منه"". ويقال : إنهما لما افترقا قيل للفراء: ""كيف رأيت الجرمي؟""، قال: ""رأيته آية""، وقيل للجرمي: ""كيف رأيت الفراء؟""، قال: ""رأيته شيطانًا"".

نرى في هذه المسألة مثلًا آخر من أمثلة الحوار والجدل بين المدرستين، فالفراء في مسألة "زيد منطلق" يهرب من عامل لا يظهر ولا يتمثل، ولكنه في مسألة "زيد ضربته" يرجع إلى تقرير هذا العامل الذي لا يظهر ولا يتمثل، ونستطيع أن نستنبط من هذا الحوار مسألة عنيّ بها النحاة أشد العناية وهي: مسألة العامل الذي كان سببًا في تشعب المباحث النحوية.

ثم تجيء الطبقة السادسة البصرية، ثم الطبقة الرابعة الكوفية، وهاتان الطبقتان هما طبقتا الشرح والتكميل والاختصار، وتهذيب التعريفات، ووضع الاصطلاحات، وشيخ الأولى أبو عثمان المازني إمام النحو والأدب في عصره، وهو من أهل البصرة، توفي بها سنة ٢٤٩ هـ، ومن كتبه "ما تلحن فيه العامة"، و"الألف واللام"، و"التصريف

والعروض". ومن علماء هذه الطبقة أبو محمد عبد الله بن محمد التوزى، قرأ على أبى عمر الجرمي كتاب سيبويه، وكان أعلم من الرياشي والمازني، وأكثرهم رواية عن أبي عبيدة، وهو منسوب إلى بلدة تسمى توز من بلاد فارس، ويقال لها أيضًا " توج".

وشيخ الثانية يعقوب بن إسحق السكيت، كان يؤدب المعتزين المتوكل، وهو خوزي من خوزستان من بليدة تسمى دورق، وسمى أبوه السكيت؛ لأنه كان طويل السكوت، ومن كتبه: "إصلاح المنطق".

ثم الطبقتان السابعة البصرية، والخامسة الكوفية، وشيخ الأولى هو أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي البصري النحوي، نزل بغداد وكان إمامًا في اللغة والنحو، وله التآليف النافعة في الأدب، منها كتاب "الكامل"، وهو كتاب أدب، وإن كان يغلب عليه روح النحو، وبه فصل قيم عن الخوارج، وقد هذب هذا الكتاب أحد أساتذة [١] الأدب بدار العلوم، ثم كتاب "المقتضب"، وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا، وكتاب الروضة، وكتب الأدب تنقل عنه، غير أنه ليس موجودًا الآن، و"إعراب القرآن الكريم"، و"طبقات النحاة البصريين"، و"نسب عدنان وقحطان". وقيل في سبب تلقيبه بالمبرد: أن صاحب الشرطة في بغداد طلبه يومًا للمنمة، فلم يرض أبو العباس بالذهاب إليه، ولجأ إلى دار صديقه أبي

[١] هو الأستاذ السباعي بيومي، أديب نافذ، ومحاضر بارع، وباحث كبير من أساتذة دار العلوم السابقين المعاصرين. وله في تاريخ الأدب كتب قيمة، منها تاريخ الأدب في الصر الجاهلي، وتاريخ الأدب في صدر الإسلام وبني أمية، وتاريخ الأدب في العصر العباسي، وتهذيب الكامل للمبرد.

حاتم السجستاني، فلما جاء رسول رئيس الشرطة يطلبه، قال أبو حاتم لأبي العباس: "ادخل في هذه المزملة"، وكانت فارغة، والمزملة: وعاء يبرَّد فيه الماء، ثم دخل الرسول وفتش عن أبي العباس في الدار، ولم يلتفت إلى وجوده حيث هو، فلما انصرف الرسول جعل أبو حاتم يصفق وينادي على المزملة: المبرد. المبرد، فسماه الناس ذلك، ولهجوا به، ولصق اللقب بأبي العباس، وكان يكره هذا اللقب لهذه الذكرى المخجلة، ويقول: ""برد الله من بردني""، وهو يريد أن يلقب بالمبرد بوزن اسم الفاعل ولا المفعول، وليست إرادته بمغيرة سبب التلقيب. وتوفي سنة ٢٨٥ هـ.

ويعاصر المبرد من شيوخ الكوفيين؛ أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني المعروف بثعلب، وهو إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان رواية للشعر، مشهورًا للحفظ، وصادق اللهجة، ثقة حجة، وُلد في بغداد، ومات بها سنة ٢٩١ هـ، وأصيب في أواخر أيامه بصمم، فصدمته فرس، فسقط في هوة، وتوفى على الأثر، ومن كتبه "فصيح ثعلب"، و"معاني القرآن"، و"ما تلحن فيه العامة"، و"معاني الشعر"، و"الشواذ"، و"المجالس"، و"إعراب القرآن الكريم".

وفي عصر هاتين الطبقتين وصل النحو إلى الغاية، ورتبت مسائله، ونظمت أبوابه، وتمت أصوله ومباحثه، وكان ذلك في أواخر القرن الثالث الهجري، وكانت الدولة العباسية قد انقسمت إلى عدة دويلات، ونشأت الأوطان السياسية، وظهرت الآداب القومية، وقد تنافس أمراء هذه

الدويلات الناشئة في إكرام العلماء وتشجيعهم، وحشد كل أمير منهم في حاشيته عددًا منهم، يجزل لهم في العطاء، فعكفوا على البحث والتأليف، وكان هذا الوضع السياسي الجيد عاملًا كبيرًا في رقى الحركة العلمية والتأليفية، التي ظهرت ثمراتها فيما بعد.

٢- المدرسة البغدادية:

بانتهاء زمن الطبقتين السابعة البصرية والخامسة الكوفية أخذ المذهب البغدادي في الظهور؛ ذلك لأن علماء الكوفة في صدر الدولة العباسية كانوا أصحاب الحظوة عند العباسيين والمقدمين عندهم، فكانوا دائمًا يغشون بغداد، ويقيمون فيها، كما كان يغشاها البصريون، وقد وقع بين الفريقين جدول علمي وتناظر في مسائل النحو، ومن أشهر هذه المجادلات المناظرة بين سيبويه والكسائي، وقد أشرنا إليها من قبل، وقد درس البغداديون نحو المدرستين، وأخذوا منهما، وكانوا في أول الأمر متأثرين بنحو الكوفيين، لسابق مكانتهم في الدولة، ولكن البغداديين ما لبثوا أن سلكوا سبيل البصريين، واتبعوهم في أكثر ما ذهبوا إليه.

ثم أخذوا يوازنزن بين نحو المدرستين، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يستخلصوا لأنفسهم مذهبًا، نُسب إليهم، ومما ذهب إليه البغداديون، ووافقوا فيه مدرستي الكوفة والبصرة ما يأتي:

١- أن اسم المصدر إذا كان علمًا لم يعمل اتفاقًا، وإن كان ميميًا فهو كالمصدر اتفاقًا، وإن لم يكن علمًا ولا مصدرًا ميميًا، وهو ما جاوز فعله الثلاثة، وكان على وزن مصدر الثلاثي – لم يعمل عند البصريين، ولكنه

يعمل عند الكوفيين والبغداديين، وعليه قول القطامي[1].

٢- أكفرًا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا.

٣- لا يجوز في النداء الجمع بين "يا" و"ال" إلا في الضرورة، فإذا أريد نداء ما فيه "ال" جئنا بوصلة، وهي " أي" فنقول يأيها الرجل، وأجاز البغداديون نداء ما فيه "ال" في النثر وغيره، بدون وصلة إليه.

وقد استمر المذهب البغدادي ناشطًا فترة من الزمن، حينما كانت بغداد لا تزال مركز الثقافة العربية، ولكن طرأت أحداث غيرت مجرى الحياة في بغداد، وفي مقدمتها استفحال نفوذ العنصر التركي، الذي استكثر منه الخليفة المعتصم، ثم اضطهاد الشيعة في أيام المتوكل، إلى أن جاء ذلك الحدث العظيم، الذي قوض عرش الخلافة في بغداد، وقضى على البقية الباقية من خفةالعباسيين، ذلك هو الغزو التتري، فأخذ علماء بغداد يهيمون على وجوههم، وقد شاء الله أن يجدوا في مصر والشام موئلًا، ومن المماليك عونًا وساعدًا.

المدرسة الأندلسية المغربية:

تأثر علماء الأندلس والمغرب بنحو المشرق، وكان لازدهار حضارة العرب في الأندلس أثر كبير في نشاط علماء النحو بهذه الديار، فكانت

[1] القطامي: والقطام: هو عمير بن شييم التغلبي. كان شاعرًا مقلًا من شعراء الإسلام: فحلًا رقيق الحواشي، كثير المثال. والقطامي اسم منقول عن اسم الصقر، سمى به الشاعر. وهذا البيت من قصيدة يخاطب بها زفر بن الحارث الكلابي، الذي أطلقه من الأسر، ورد إليه ماله، وأعطاه مائة من إبل مَن أسروه، والرتاع : جمع راتعة، وهي الإبل التي ترتع كيف شاءت.

لهم جهود قيمة في اللغة والنحو، لذلك استحدثوا في النحو مذهبًا رابعًا إلى جانب مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين، وفي كتب النحو إشارات إلى المسائل التي قررها علماء الأندلس والمغرب، ولكن مذهبًا جديدًا يحمل طابع التفكير في هذه البلاد في طور من أطوارها التاريخية، ذلك هو المذهب الذي كان يحمل لواءه قاضي الجماعة في الأندلس، وهو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المشهور بابن مضاء، وهو قرطبي الأصل، عاش في القرن السادس الهجري، كان ظاهري المذهب على نحو ما كان سيده يوسف بن عبد المؤمن من ملوك الموحدين. ويقوم مذهب ابن مضاء على أساس إنكار استخدام القياس والرأي في النحو، إذا لم يقم عليه دليل، كما كان يفعل الظاهرية مثل ذلك في الفقه، ويميل إلى التمسك الشديد بحرفية النص دون تأويل فيه، ويمكن تلخيص مذهبه فيما يلي:

١- إلغاء نظرية العامل في النحو؛ لأن العقل لا يسلم بها إذ تجعلنا نفكر في محذوفات ومضمرات، لم يقصد إليها العرب، حين نطقوا بكلامهم موجزًا، كما أنها تؤدي إلى التعقيد، ورفض بعض أساليب العرب.

٢- إلغاء التأويلات والتقديرات البعيدة.

٣- إلغاء اقياس والعلل الثواني والثوالث.

كان مذهب ابن مضاء ثورة عامة على نحو المشرق، وبخاصة نحو البصريين، ولكنه كان صيحة خمدت جذوتها بعد انتهاء خلافة الموحدين

في المغرب والأندلس، ولما دالت دولة العرب بالأندلس، واستولى الإفرنج على غرناطة سنة ٨٩٧ هـ، رحل العلماء إلى المغرب ومصر والشام، كما رحل من قبلهم علماء العراق بعد غزو التتار.

الأثر الأجنبي في النحو العربي:

تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني؛ ولذلك نرى الرواة يسمون نحاة البصرة "أهل المنطق"؛ لأنهم أكثروا من استعمال القياس في النحو، وقد خالفهم الكوفيون في الاعتماد على القياس في كل الأحوال، فقد أباحوا أمورًا تشذ عن القياس النحوي، وسبب ذلك أن نحاة البصرة كانوا أسرع تأثرًا من الكوفيين بمنطق أرسطو ومذاهب الفلسفة اليونانية، فالمنطق الأرسطي وجد سبيله إلى البصرة قبل غيرها. وكانت هذه المدينة مركزًا لكثير من فلاسفة المعتزلة، الذين استخدموا الحكمة اليونانية والمنطق الأرسطي في مذاهبهم الكلامية، وللدكتور إبراهيم بيومي مدكور بحث قيِّم بعنوان "منطق أرسطو والنحو العربي"، وقد وصل في هذا البحث إلى نتائج لها قيمتها في ميدان البحث العلمي، فما لاشك فيه أنه وفق إلى إثبات الصلة بين منطق أرسطو والنحو العربي حين يقرر أن النحو العربي قد تأثر بالمنطق اليوناني من جهتين: الأولى موضوعية، والثانية منهجية، فمن الناحية الموضوعية يرى أن المنطق الأرسطي قد تناول مبادئ نحوية؛ ففي المقولات وهي الجزء الأول من منطق أرسطو، يتكلم المعلم الأول عن الألفاظ، وفي كتاب العبارة، وهو الجزء الثاني يتكلم عن الجمل، ويفصل القول فيها، وفي هذا الكتاب يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل، ويُعرف الأول بأنه ما دل على معنى وليس الزمن جزءًا منه،

ويعرف الثاني بأنه ما دل على معنى وزمن، وفي كتاب آخر لأرسطو يسمى "طوبيقا" أو الجدل يتحدث عن الأداة.

وإذا وازنا بين ما ذهب إليه المعلم الأول في كتبه المنطقية، التي أشرنا إليها، وبين ما سجله سيبويه، زعيم نحاة البصرة، في كتابه المشهور، نجد أن العالم البصري يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، ويعرِّف كل واحد من هذه الأقسام تعريفًا يحاكي التعريف الأرسطي تمامًا، وقد سمى سيبويه القسم الثالث من أقسام الكلمة حرفًا، على حين سماه الكوفيون أداة، مما يدل على أن الكوفيين قد احتفظوا بالمصطلح المنطقي، كما ورد على لسان أرسطو. وقد تناول المعلم الأول الكلام عن التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع، وتوضيح الإثبات والنفي والطلب والاستفهام، وتلك مباحث نحوية تناولها أرسطو في كتبه المنطقية، ونحن نجدها في كتاب سيبويه. ومما يقوي الصلة بين المنطق الأرسطي والنحو العربي أن أرسطو تحدث عن الأساس في تكوين الجمل الفعلية والاسمية، ذلك الأساس هو الإسناد، وقد عرض أرسطو ذلك في كتابيه المقولات والعبارة، وقد صنع سيبويه ما صنعه أرسطو، فنراه في كتابه يتحدث عن المسند والمسند إليه، وفي مكان آخر يعقد فصلًا عنوانه "المبتدأ والمبني عليه" أو بمعنى آخر الموضع والمحمول عليه. من كل هذا يتجلى لنا أن النحو العربي قد تأثر من الناحية الموضوعة بالمنطق اليوناني، ومما يؤكد هذه النتيجة ويزيدها وضوحًا ويقينًا أن كتب أرسطو المنطقية: "المقولات"، و"العبارة"، و"أنا لو طيقا" "التحاليل

الأولى" كانت معروفة قبل الإسلام، نقلها السريان فيما نقلوا من الفلسفة اليونانية، وقد لعب السريان والمترجمون فيما بعد دورًا خطيرًا في نقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، ويقال: إن ابن المقفع ترجم هذه الكتب عن الفارسية، ومما لا شك فيه أن النحو السرياني وضعه جماعة من علماء السريان منهم يعقوب الرهاوي[1]، وقد كان معروفًا في الأوساط العربية، كما كان حنين ابن إسحق النحوي المترجم معاصرًا للخليل بن أحمد وسيبويه، وصديقًا للخليل، وينسب إليه أنه ترجم الأجرومية اليونانية، وأتم مع ابنه البقية الباقية من كتب أرسطو، ومن المقطوع به أن المترجمين في أوائل القرن الثاني الهجري قد أثاروا جوًا من المشاكل النحوية، وغير خافٍ ما كان لهذا من تأثير في اتجاه نحاة العرب ورسم منهجهم في التأليف، فلقد تأثروا بالقياس المنطقي من الناحية المنهجية، فأصبح للقياس الأثر الكبير في نشأة النحو العربي واستخلاص قواعده وضبط أحكامه، حتى لقد ذهب ابن جني وهو من أكبر علماء اللغة والنحو إلى القول بأنه إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلًا وجب أن يكون قياسًا وعقلًا، ثم يأتي بعده ابن الأنباري[1] فيقرر أن إنكار القياس

---

[1] الرهاوي: نسبة إلى الرها. وهي إدسا اليونانية (**Edessa**) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، وكانت لها شهرة عظيمة في الحضارة والمباني الكبيرة وبخاصة الكنائس والأديرة.

[1] ابن الأنباري: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله أبو البركات. كان إمامًا ثقة غزير العلم. قدم بغداد في صباه. وحصل طرفًا صالحًا من الخلاف بين النحاة. وصار معيدًا للنظامية. قرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي، ولازم ابن الشجرى. حتى برع في النحو، ودخل الأندلس. وله مؤلفات مشهورة منها: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين،

في النحو لا يتحقق؛ لأن النحو قياس كله، فمن أنكره فقد أنكر النحو، وينسب الرواة الى الكسائي أنه قال البيت الآتي:

إنمـــا النحـــو قيـــاس يتبـــع وبـــه كـــل أمـــر ينتفـــع

كان النحويون منذ عصر الحضرمي متأثرين بالقياس: لنشأتهم في البصرة، ولاتصالهم بعلماء النحو السرياني، وبما ترجم من كتب أرسطو المنطقية، كانوا يوازنون بين الأشباه والنظائر، ويستنبطون منها الأوصاف المشتركة، ثم أخذوا يتوسعون فيه شيئًا فشيئًا حتى أصبح القياس منهجً ذا قواعد ثابتة ومعالم محدودة، وأساسًا يستمدون منه القواعد النحوية.

ونشأ القياس النحوي في العراق، كما نشأ فيها القياس الفقهي، ولم يكن ذلك وليد الصدفة، وإنما كان وليد امتداد العراقيين بالرأي واعتمادهم عليه عليه، وتأثرهم بالثقافات الأجنبية، التي كانت بلادهم موطنًا لهم، ومن الأصول المنطقية التي تأثر بها النحو العربي تأثرًا قويًا واضحًا مبدأ العلية، وهو مبدأ فلسفي، كان له شأن في النحو، لا يقل خطرًا عن قياس أرسطو، ذلك لأن العلة هي الأساس الذي يُبنى عليه القياس النحوي، ولقد كانت نظرية العامل في النحو وليدة مبدأ العلة الفلسفي، وقد طغى العامل على كل شيء في النحو، حتى صار النحو مجموعة من العوامل، ولا غرابة في ذلك، فقد قالوا: إن النحو أثر يجلبه

والإغراب في جدل الإعراب، وميزان العربية، والأضداد والنوادر، واللباب، وكتاب كلا وكلنا، وكتاب كيف، وكتاب أسرار العربية وغيرها. وتوفي سنة ٥٧٧ هـ.

العامل، وقد وضع أبو على الفارسي[1] كتابًا سماه: "العوامل"، استعرض فيه كل مسائل النحو، كما وضع عبد القاهر[2] الجرجاني كتابًا آخر سماه "العوامل المائلة"، ولعلنا نستطيع بعد هذ البيان أن نقول في يقين لا يرقى إليه الشك: إن النحو العربي كان متأثرًا إلى حد بعيد بمنطق أرسطو، وقد ظهر هذا الأثر في رسم منهج القواعد النحوية واتجاها الفلسفي، وغزارة مادتها، واتساع أبوابها، فقالوا إن كل عرض حادث لابد له من حدث، وإن كل أثر لا بد من مؤثر، ولم يقبل هؤلاء العلماء أن يكون المتكلم هو المحدث لذلك الأثر الذي يعرض لأواخر الكمات، لأنهم قالوا: إن

---

[1] أبو على الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، ولد بفارس. كان واحد زمانه في علم العربية. دخل بغداد سنة ٣٠٧ هـ. وطاف في كثير من البلدان. وقدم حلب سنة ٣٤١ هـ. فأقام عند سيف الدولة حينًا. ثم رجع إلى فارس فصحب عضد الدولة بن بويه. وكان مقدمًا عنده، فعلمه النحو، وصنّف له كتاب الإيضاح في قواعد العربية، والتكملة في التصريف، ومن كتبه الأخرى: الحجة في علل القراءات السبع، وكتاب المقصود والممدود، والعوامل المائة. وكان عضد الدولة يقول: أنا غلام أبي على الفارسي في النحو، وغلام أبي الحسن الصوفي في النجوم. وتوفي سنة ٣٧٧ هـ.

[2] عبد القاهر الحرجاني: هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى إمام النحاة وشيخ البلاغة. كان متكلمًا على مذهب الأشعري وفقيهًا على مذهب الشافعي. أخذ النحو بحرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي. وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات. مع الدين المتين والورع والسكون، دخل عليه لص وهو في الصلاة، فأخذ ما وجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته. ومن مصنفاته كتاب المغنى على شرح الإيضاح في ثلاثين مجلدًا، وكتاب إعجاز القرآن، والعوامل المائة، ومن كتبه في البلاغة أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، وهما من أحسن ما كتب في البلاغة. يقول فيه صاحب الطراز: إنه أول من أسس قواعد فن البلاغة وأوضح براهينه، وأظهر فوائده ورتب أفانينه. وتوفي سنة ٤٧ هـ وقيل سنة ٤٧٤ هـ.

المتكلم ليس حرًا في إحداث الشكل الإعرابي، وليس في استطاعته أن يأتي به متى شاء، ومن ثم قالوا: إن كل أثر يقتضي عاملًا محدثًا له، وعلة موجبة، وكانت النتيجة أن أسرف النحاة في فلسفة النحو، حتى تعقدت مسائله الكثيرة، وصار بعضها شبيها بالأحاجى والألغاز.

هذه الفلسفة النحوية التي كانت من أبرز مظاهرها نظرية العامل ومبدأ العلل، هي التي حملت ابن مضاء[١] القرطبي على مهاجمة النحو، ومحاولة إبطال نظرية العامل، وما يتصل بها من علل، فهل كان الأثر الأجنبي حقًا مما أفسد النحو أم كان عاملًا من عوامل تنظيمه وضبط قواعده وإقامته على أسس سليمة؟ قد يكون الأمر الثاني أقرب إلى الاحتمال لولا إسراف النحاة في استخدام القياس، والتوسع في استنباط العلل، والمبالغة في تطبيق نظرية العامل.

[١] ابن مضاء القرطبي: هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمي، أصله من قرطبة، وإليها ينسب، ولد سنة ٥١٣ هـ، وهو من بيت حسب وشرف، وكان منقطعًا إلى العلم والعلماء، معنيًا أشد العناية بلقاء أساتذة عصره، ومن أجل ذلك يترك قرطبة إلى إشبيلية، حيث يدرس كتاب سيبويه على ابن الرماك، ثم يهاجر في طلب الحديث إلى سبتة، فيروي عن القاضي عياض أكبر محدثي المغرب وفقهائه في عصره، وكان شديد الاهتمام برواية الحديث حتى قال فيه ابن فرحون: إنه كان واسع الرواية عالمًا ضابطًا لما يحدث به، ومن أساتذته في العربية ابن بشكوا ال وابن سحنون، ولم يكتف بالثقافة اللغوية والدينية، فكان عارفًا بالطب والحساب والهندسة، كما كان شاعرًا بارعًا كاتبًا، وكان ينزع إلى الموحدين، ويؤمن بدعوتهم التي تقوم على التمسك بنصوص القرآن الكريم دون تأويل أو تقدير، فجعلوه قاضي الجماعة في الدولة كلها. وتوفي في عهد يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٩٢ هـ.

نستطيع الآن أن تؤكد أن النحو العربي قد تأثر بنحو الأمم السابقة، وبخاصة اليونان والسريان. وقد أشار بعض الباحثين إلى أن عليًا رضيّ الله عنه، وهو الذي أمر أبا الأسود بوضع النحو، كان يقيم بالكوفة، وفي هذه المدينة وفد عليه كثير من علماء السريان، وقد سعى هؤلاء العلماء إلى علي لما اشتهر به من علم، ومن الثابت أنه حاورهم وناقشهم، وأنهم قد حاوروه وناقشوه، فأشاعوا بذلك جوًا علميًا، ولا بد أن يكون قد ألقى شيئًا من الضوء على النحو السرياني، ومن هذه الزاوية انبعث أول أثر أجنبي في النحو العربي؛ ومما يؤيد ذلك ما بين اللغتين العربية والسريانية من تشابه في كثير من أبواب النحو وتقسيماته، ففي اللغة السريانية نجد الضمائر المنفصلة للمذكر والمؤنث، والمخاطب والغائب، والمفرد والجمع، وأسماء الإشارة، وتقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث، ثم إلى مفرد وجمع، وشيئًا من أحكام العدد، وأصول الكلمات التي هي الفاء والعين واللام، والأفعال المهموزة، والمتصلة بالواو أو الياء أو بالألف، والفعل المضعف، ومثل هذا التشابه نجد شيئًا منه بين العربية والعبرية، ومن مظاهر هذا التشابه تحرك الحروف بحركات كما في العربية، وتقسيم الكلمة إلى ثلاثة أنواع: اسم وفعل وحرف، وتقسيم الاسم إلى اسم ذات واسم معنى، وتقسيم الاسم إلى مفرد ومثنى وجمع، ثم الضمير البارز والمستتر، والضمائر المنفصلة التي تختص بالرفع والنصب، وتقسيم الفعل إلى ماضٍ وحال ومستقبل وأمر، وإلى لازم ومتعدٍ، وقد يمكن تعليل هذا التشابه بأن اللغات الثلاث: العربية والعبرية والسريانية ترجع إلى أصل واحد، وهو اللغة السامية الأولى، ولا يقلل هذا من شأن النتيجة التي وصلنا إليها، وهي أن علماء السريان الذين وضعوا نحو هذه اللغة كانوا متأثرين بنحو اليونان

ومنطقهم، وأنهم بدورهم كانوا من العوامل المؤثرة في نحو اللغة العربية، ويمتدح العلامة "دى بور" صاحب كتاب "تاريخ الفلسفة في الإسلام: العقل العربي وأثره في تنظيم النحو"، فيقول: ""علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي، بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، وهو أثر يرغم الناظر فيه على التقدير له، ويحق للعرب أن يفخروا به""، وقد أنصف "دي بور" العقلية العربية بهذه الشهادة القيمة، فإنه مما لاشك فيه أن علماء النحو العربي، وإن كانوا متأثرين بنحو من سبقهم، إلا أنهم أقاموا بناء هذا العلم عربيًا خالصًا.

ويرى الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه "فقه اللغة" أن علماء النحو العربي لم يكونوا على علم باليونانية وقواعدها، ولم تكن لهم صلة بعلماء النحو اليوناني، ومن المعروف أن قواعد العربية تختلف في طبيعتها ومناهجها اختلافًا جوهريًا عن قواعد اللغة اليونانية، فلو كانت قواعد اللغة العربية وضعت على نمط القواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها، أو على الأقل مشابهة لها في أصولها ومناهجها، ويرى أن الإعراب عنصر أساسي من عناصر اللغة العربية، اشتملت عليه منذ أقدم عصورها، ويبرهن على ذلك بأن أوزان الشعر العربي وقواعده الموسيقية تقوم على ملاحظة نظام الإعراب في المفردات، وبغير إعراب الكلمات تختل أوزان الشعر العربي، وتضطرب موسيقاه، بل إن القرآن الكريم نزل مشتملًا على هذه الظواهر النحوية.

والحقيقة أننا حين نزعم أن النحو العربي قد تأثر بمؤثرات أجنبية لا

نريد أن نقول: إنه وضع تمامًا على نمط النحو اليوناني. وخلاصة ما يذهب إليه القائلون بالأثر الأجنبي في النحو العربي أنه قد تأثر فعلًا بالمنطق اليوناني، وأن هذا التأثير قد تناول الناحيتين الموضوعية والمنهجية، والعرب بعد ذلك كان لهم تفكيرهم الخاص في تنظيم قواعدهم، وإيرادهم الشواهد، واستنباط القواعد، وتقسيمها إلى أبواب وفصول، وقد شغلهم النحو أكثر مما شغلهم علم آخر من علومهم، فكان عندهم علم العربية الأكبر، فأطالوا فيه وأطنبوا، وأسرفوا في توسيع مباحثه وفلسفتها، وعلى هذا الأساس قيل: إن النحو قطعة من التفكير العربي.

الجديد في علم النحو:

كان من مظاهر تلك الصبغة الفلسفية التي اصطبغ بها النحو ظهور نظرية العامل، التي أسرف القدماء في الكلام عنها، والاحتجاج لها، ثم مسألة العلل النحوية، والخلاف والجدل في التأويل الإعرابي. كانت هذه المسائل الثلاث مثار النقاش، ومنشأ تلك الفلسفة التي شغل بها النحاة وقتهم. لقد أنفقوا أكثر جهدهم في تطبيق تلك المبادئ الفلسفية – كل أثر لابد له من مؤثر، وكل معلول لا بد له من علة، وكل حدث لا بد له من محدث – على الكلمات وضبطها في أوضاعها المختلفة، ثم أخذوا يبحثون عن شيء ينسبون إليه إحداث الظواهر الإعرابية التي تعتري أواخر الكلمات، فكان ذلك الشيء هو العامل، وإذا كنا نحن اليوم نعد ذلك شيئًا قد أفسد النحو، وأكثر فيه الفروع والتأويل والتخريج الذي لا طائل تحته، فإن فريقًا من القدماء قد تنبهوا إلى ذلك، ومن هؤلاء: ابن مضاء

القرطبي، فقد ألف كتابًا سماه ""الرد على النحاة""، والكتاب يحمل ثورة تجديدية ترمي إلى تخليص النحو من الفلسفة الكلامية، وابن مضاء يهدف أولًا إلى إلغاء نظرية العامل، ثم العلل الثواني والثوالث، ثم القياس، والتمرينات غير العملية، وإنشاء نحو جديد، لا يعني فيه بالعوامل وتقسيمها.

ولم يكن الشعور بما أفسد النحو من تعقيد في التأويل والتخريج مما فكر فيه ابن مضاء وحده، بل إن ابن جنى قد سبقه إلى تقرير شيء من ذلك، ولهذا يعتمد ابن مضاء في ثورته على نحو المشرق على ما ذهب إليه ابن جني في قوله بعد كلام عن العوامل اللفظية والمعنوية: "" وأما في الحقيقة ومحصول البحث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره"".

ويقول ابن مضاء بعد فاتحه كتابه في مفتتح الفصل الأول منه: ""قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوي عنه، وأبنيه على ما أجمعوا على الخطأ فيه""، ونحن يهمنا من الإشارة إلى ثورة ابن مضاء على الجانب الفلسفي في النحو، وما قاله ابن جني قبله أن نبين أن التجديد في النحو فكرة قديمة جالت بخاطر العلماء من قبل.

وممن حملوا لواء التجديد في النحو في هذا العصر الأستاذ إبراهيم مصطفى، فقد ألف كتابًا سماه: "إحياء النحو"، ولا ينسى الأستاذ الفاضل أن يذكر أن الثورة على نحو سيبويه كانت قديمة، فهو يحدثنا أنه قد بدا لأبي عبيد معمر ابن المثنى المتوفى سنة ٢٠٨ هـ، أن يسلك في درس

العربية مسلكًا آخر، فوضع كتابه مجاز القرآن، وقد حاول فيه أن يبين شيئًا من خصائص الجملة العربية، من تقديم وتأخير وحذف ونحوه، ولكن لم تظفر هذه المحاولة بعناية الباحثين من علماء النحو، لأن نحو سيبويه كان قد فتنهم، واستولى على عقولهم، ويشير الأستاذ إلى أن بعض باحثي زماننا، حين وقع لهم كتاب "مجاز القرآن" المشار إليه حسبوه خطأ كتابيًا من كتب البلاغة، ثم أتى بعد أبي عبيدة بنحو قرنين الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ، فوضع للنحو نظامًا جديدًا في البحث، يتجاوز الإعراب إلى شيء يسميه النظم، وذلك في كتاب وضعه يسمى "دلائل الإعجاز"، ثم يشرح عبد القاهر معنى النظم بقوله: ""واعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو""، ويقول: ""ولا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"".

وعلى الرغم مما بذله عبد القاهر من جهد في توضيح مذهبه، فإن دعوته كان نصيبها الإهمال، وقد أخطأ العلماء بعده في فهم وجهة نظر هذا العالم الكبير، فقد أخذوا الأمثلة التي أتى بها لتوضيح مذهبه، وجعلوها مقدمات لأصول علم جديد من علوم البلاغة، علم "المعاني"، وفي هذه اللمحة التاريخية تتجلى لنا صورة من صور التجديد في النحو، ويجمل صاحب كتاب "إحياء النحو" فكرته في التجديد في المبادئ الآتية:

١- الرفع علم الإسناد، ودليل على أن الكلمة يتحدث عنها.

٢- الجر علم الإضافة، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف.

٣-الفتحة ليست بعلم من إعراب، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة، التي يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم، ما لم يلفتهم عنها لافت، فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدراجة.

٤-إن علامات الإعراب في الاسم لا تخرج عن هذا إلا في بناء أو نوع من الاتباع.

هذه الأصول الأربعة هي خلاصة أحكام الإعراب في رأي الأستاذ، ويقول: إنه لما درس التنوين استقامت له فيه هذه الأصول:

١-التنوين علم التنكير.

٢-لك في كل علم ألا تنونه، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير.

٣-لا تحرم الصفة التنكير، حتى يكون لها حظ من التعريف.

ثم يتناول الأستاذ في كتابه شرح هذه الأصول الجديدة، ويبين أنها خلاصة أبحاث ودراسات مستنيرة لأمهات كتب النحو، واجتهاد في الرأي، وتصوير لبحث جديد في النحو، يرده إلى أصوله الفطرية، التي يدل عليها ذلك التعريف: "النحو قانون تأليف الكلام"، وهذا التعريف يتفق مع ما ذهب إليه ابن جني من قبل من أن النحو هو نهج العرب في كلامهم، وقد حاول أحد علماء الأزهر وهو الأستاذ محمد عرفة، نقد كتاب "إحياء النحو"، فوضع كتابًا في ذلك سماه "النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة"، وقد أخذت حركات التجديد في هذا العصر يتلو بعضها بعضًا، فوزارة التربية والتعليم تؤلف لجنة من كبار الأساتذة لتيسير

قواعد النحو، وحينما فرغت هذه اللجنة من تقرير ما انتهت إليه من هذا التيسير في النحو والبلاغة أخذت بعض الهيئات العلمية ومنها لجنة دار العلوم تنقذ ما أقرته لجنة التيسير.

وللأستاذ أمين الخولي بحث طريف عنوانه "هذا النحو"، تناول فيه الكلام عن النواميس الاجتماعية مبينا أن الفكرة قد تعد حينًا ما كافرة تحرَّم وتحارَّب، ثم تصبح مع الزمن مذهبًا بل عقيدة وإصلاحًا، ثم يتكلم عن النحو والفقه وأن للنحو أصولًا كما للفقه، ويتكلم عن اللغة والشريعة في الحياة، وهنا يقول الأستاذ: ""لماذا لا يصنع المعنيون باللغة والنحو صنيع لجنة الأحوال الشخصية، حين وضعت دستورًا شرعيًا تسير عليه حتى انتهت إلى بعض الآراء، وقد أصدرت بها الحكومة قانونًا يُتبع في الأحوال الشخصية، تماشيًا مع سنة التطور الاجتماعي. إن هذا الدستور الشرعي يجب أن يكون دستورًا للتجديد النحوي، وإذا كان التجديد قد طرق باب الفقه ودخله، وللفقه ما له من القدسية الدينية فإنه جدير أن يتبع مثل ذلك في النحو""، ويرى الأستاذ أن ذلك الدستور الجيد في تهذيب النحو يجب أن يقوم على الأصول الآتية:

١- ملاحظة التيسير والرفق به، لأن البلوى بالنحو مثل البلوى بالفقه إن لم تكن أعم وأشمل؛ لأن كثيرًا من الناس يمكنهم الاستغناء عن الحاكم الفقيه، وليس فهم شخص واحد لا يعرض للمشكلات اللغوية الكلامية. جمع ما يوجد من المذاهب النحوية والتوسع في فهمه، دون وقوف عند نصوصه.

٢–عدم التقيد بمذهب واحد في مسألة بعينها، وعدم التقيد بالأفصح أو الأرجح أو الأصح.

٣–خير ما يوافق حاجة الأمة ويساير رقيها الاجتماعي.

ثم ذكر الأستاذ أن هناك صعوبات يعرض لها متعلم اللغة اليوم، وأنه بسبيل تدبير حل لهذه الصعوبات، ولا بد أن يمس هذا الحل الإعراب الذي هو طابع اللغة، ويمس اضطرابه الذي هو نتيجة تشعبها، ويمس اضطراب القواعد وتعدد الآراء في الكلمة والتعبير الواحد وهو نتيجة سعتها ودقتها، ثم يقول الأستاذ: ""ولكن لا يمكننا أن نمس طابعها من الإعراب، فلم يبق أمامنا إلا أن نعالج الأمرين الباقيين، وهما اضطراب الإعراب، واضطراب القواعد، حتى نصل فيهما إلى شيء يخفف تلك الصعوبات على من يستعمل اللغة من غير المختصين بدرسها""، ولا شك أن هذه محاولة لها قيمتها في ميدان التجديد العلمي، فالداعي إليها رجل مجدد، وعالم مختص.

ومن الذين حملوا لواء التجديد النحوي الأستاذ عبد الحميد حسن، فقد جال في ذلك الميدان جولة موفقة، ولا مراء في أن المحاولة التي قام بها كانت أجدى من غيرها من الناحية العلمية، ففيها توجيه المشتغلين بدرس النحو في المدارس إلى تقوية الصلة بين القواعد والأساليب، بحيث يكون النحو شيئًا متصلًا أقوى اتصال بالتعبير والقراءة، مرتبطًا بتكوين الجمل وإنشاء الأساليب، وقد أثار الأستاذ الباحث في كتابه "القواعد النحوية – مادتها وطريقتها" مسائل قيِّمة في

البحث العلمي، فمن ذلك ما ذهب إليه من أن اللغة هي المعاني المصبوبة في قالب من الألفاظ، وليست هي الألفاظ كما كان يعرفها السابقون، فيقولون: ""إن اللغة هي الألفاظ التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"". وأن القواعد ليست غاية في ذاتها، ولم تكن في الواقع الوسيلة الصحيحة إلى تعلم التراكيب العربية السليمة، فالناس يأخذون اللغة عن طريق المحاكاة لنصوصها وأساليبها، وهذا هو الطريق الطبيعي لتعليم اللغة، فالعرب الفصحاء لم يدرسوا القواعد في زمانهم إذ لم يكونوا بحاجة إليها، وإنما استنبطها العلماء من كلامهم فيما بعد، ولم تكن الحاجة ماسة إلى النحو إلا بعد أن طرأ الفساد على اللغة، وشاع اللحن على ألسنة المتكلمين.

أما نحن الآن ففي زمن نتعلم فيه اللغة بطريقة صناعية، فحاجتنا – بلا ريب – قوية إلى تعليم القواعد؛ لتعصم ألسنتنا من الخطأ، ولتكون قانونًا لنا إذا اتبعناه أقدرنا على تعلم اللغة تعليمًا صحيحًا، ويرى الأستاذ أنه لما كان العلماء قد استنبطوا القواعد من اللغة وجب أن يكون سبيلنا في تعليم القواعد تلبُّس الأساليب الصحيحة للغة، ثم يرسم لنا طريقته الجديدة التي تعتمد الأصول الآتية:

" ١ " أن يكون أساس تعليم النحو لغويًا إنشائيًا.

" ٢ " وأن يبدأ بالعبارات والجمل مع تنميتها تنمية متدرجة.

" ٣ " وأن تجمع الحقائق المؤتلفة والمتماسكة التي يدعو التعبير إلى تجانسها، دون تقيد بما جرت عليه الكتب النحوية من تقسيم علمي،

يبدأ بالتحدث عن الاسم وأقسامه، ثم الانتقال إلى الفعل وأنواعه.

"٤" وأنه لا داعى للتعجل بسرد القواعد النحوية، ولا للتقيد بالاصطلاحات إذا أمكن الاستغناء عنها.

"٥" الاستغناء عن تدريس المباحث النحوية التي لا تمت بصلة قوية إلى التعبير الصحيح، ولا تساعد على تذوقه.

"٦" وأن نتخذ من المباحث الصرفية والاشتقاقية عونًا على تنمية معجم التلميذ تنمية متدرجة منظمة مرتبطة بنموه العقلي وبسعة أفقه الحيوي.

والأستاذ حين يدعو إلى جمع الحقائق المؤتلفة والمتماسكة يقصد من ذلك أنه لا مانع من أن نصل بين درس النحو والبلاغة، فكل من الدرسين يبحث في خصائص العبارة العربية، ويؤيد هذا الاتجاه قانون الربط بين المعاني المؤتلفة، وهو الذي تدعو إليه التربية الحديثة.

وقد كانت البحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والأدبية ممتزجة في كتب الأولين، ونحن لا ندعو إلى هذا الخلط، بل غايتنا أن نجمع الحقائق التي من جنس واحد في مكان واحد؛ لتيسير الدراسة والفهم، فالنفي مثلًا يدرس في أبواب متفرقة في كتب النحو الحالية، فلا بأس من جمع مسائله في باب واحد، وتطبيقًا على قاعدة جمع الحقائق المؤتلفة، يرى الأستاذ أن تدرس القواعد النحوية في ثنايا العبارات والتراكيب العربية، مع مراعاة التقسيم الآتي الذي يضع الموضوعات المتشابهة بعضها بجانب بعض، وهو:

"١" الموضوعات التطابقية.

"٢" الموضوعات اللغوية الاشتقاقية أو الصرفية.

"٣" الموضوعات الإعرابية.

"٤" الموضوعات التي تتصل بترتيب الكلمات في الجمل، من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف.

ومما يلاحظ أن الأصل الرابع في التقسيم السابق يصحح الخطأ الذي وقع فيه العلماء السابقون حين فصلوا موضوع النظم، الذي قصد به عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" التحدث عن معاني النحو، فجعلوه مبحثًا من مباحث البلاغة، وسموه علم المعاني، فرد الأستاذ هذا الموضوع إلى حظيرته الأصلية وهي النحو، وكتاب "القواعد النحوية" للأستاذ عبد الحميد حسن يتناول فضلًا عن ذلك مباحث تتصل بالنحو، وهي على جانب كبير من الأهمية، وقد عالجها الأستاذ علاجًا هادئًا مستنيرًا.

وهذه الحركة التجديدية الأخيرة قد وجدت لها صدى قويًا في نفوس الذين اتصلوا بها من قريب أو بعيد، وستثمر ثمرتها المرجوة في الميدان المدرسي التعليمي.

كتاب سيبويه:

كان كتاب سيبويه أول عمل ناضج في علم النحو، وأول كتاب وصل إلينا من تأليف القدماء، فأصبح هذا الكتاب العظيم دستور النحاة، ودعامة علم النحو، وأهم مرجع للبحث والدرس، وكانت دراسته فيما

نعلم دليل البراعة، وميزان التحصيل، كان هذا الكتاب عملًا ناضجًا في علم النحو لم يسبق مثل، فأثار ذلك بعض الشبهات لدى الباحثين الذين زعموا أن مثل هذا التأليف على تلك الصورة التي استقامت لسيبويه، لا بد أن يكون نتيجة لجهود متضافرة لعلماء سابقين.

والحق أن طريقة الدرس والتلقي عن العلماء كانت مبنية على الأخذ والنقل عن الأساتذة، فأبو الأسود زعيم الطبقة الأولى، والواضع الأول لعلم النحو أخذ عن يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم، وعن يحيى أخذ عبد الله الحضرمي، وعن الحضرمي أخذ عيسى بن عمر الثقفي، وعن عيسى أخذ الخليل بن أحمد، وعن الخليل أخذ سيبويه، فسيبويه استمد علمه في النحو من هؤلاء السادة الأعلام، ثم وضع كتابه جامعه لمسائله كلها التي تلقاها على أساتذته، جمع فيه المسائل المتشابهة، ووضع بعضها بإزاء بعض، وسماها أبوابًا، وتختلف هذه الأبواب من حيث الطول والقصر، تبعًا للمسائل النحوية التي بسطها في كل باب مستشهدًا بالقرآن الكريم، وكلام العرب الموثوق بفصاحتهم، ويترك سيبويه الاستدلال بالحديث الشريف متأثرًا بما رواه العلماء من جواز رواية حديث الرسول بالمعنى، والرواية بالمعنى لا تصلح للاستدلال على النصوص اللغوية، والكتاب خالٍ من المقدمة والخاتمة، وليس فيه تقسيم أو ترتيب على النحو الذي نراه في كتب المتأخرين.

ونرى في تبويب سيبويه لكتابه سذاجة، فأسمى الأبواب طويلة، والبحوث النحوية والصرفية تتصل بأخرى لغوية، وينقل سيبويه أكثر كتابه

عن أستاذه الخليل بن أحمد، كما ينقل عن غيره من العلماء، نقل عن يونس فصلين في التصغير، ويقول سيبويه: ""وجميع ما ذكرته لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس"". وينقل أقوال بني عمر بن العلاء، ويوازن بينها وبين أقوال الخليل ويونس، يقول سيبويه: ""سألت الخليل عن القاضي في النداء، فقال: أختار: يا قاضي، لأنه ليس بمنون، كما أختار هذا القاضي، وأما يونس فقال: يا قاضٍ، وقول يونس أقوى""، كما يروي عن الأخفش، وأحيانًا عن العرب مباشرة، فيقول: ""سمعنا ذلك من العرب، وسمعنا من يوثق به من العرب"". ويعني سيبويه بالشواهد: فقد جمع في كتابه ألفًا وخمسين بيتًا، قال الجرمي: ""في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتًا سألته عنها فعرف ألفًا ولم يعرف الخمسين""، وذكر السيوطي في الاقتراح: أن المولدين قد وضعوا أشعارًا ودسوها على الأئمة، فاحتجوا بها ظنًا منهم أنها للعرب، وذكر في كتاب سيبويه منها خمسين بيتًا، وأن منها قول القائل:

أعــرف منهــا الأنــف والعيانــا   ومنخـــرين أشـــبها ظبيانـــا

واحتج سيبويه بشعر بشار توددًا إليه، لأنه هجاه لترك الاحتجاج بشعره. ولم يكن سيبويه جامعًا فقط وناقلًا لآراء أساتذته، بل كانت له شخصية قوية في التحليل والترجيح والاستنباط مع جودة العبارة، والكتاب يقع في جزءين، جمع فيهما سيبويه كل مسائل النحو، ففي الجزء الأول تعرض للموضوعات الآتية على الترتيب:

الكلم وأقسامه – اللازم والمتعدى – ما ينصب مفعولين أو أكثر –

ضمير الشأن – التنازع في العمل – الاشتغال – الإلغاء – البدل – عمل اسم الفاعل – عمل المصدر – الصفة المشبهة – المصدر – أسماء الأفعال – حذف العامل التحذير – المفعول معه – المفعول المطلق – المفعول لأجله – الحال – الظرف – الجر – التوابع – النعت السببي – علم الجنس – المبتدأ – إن وأخواتها – كم النداء – الندبة – الاختصاص – الترخيم – لا التي لنفي الجنس – الاستثناء – الضمير – أي المضارع – النواصب والجوازم – إن وأن المشددتان – أن وإن المخففتان – أم – أو.

وفي الجزء الثاني يورد سيبويه الموضوعات الآتية:–

ما ينصرف وما لا ينصرف – الإضافة وهو باب النسبة – التثنية – الجمع – الإضافة لياء المتكلم – التصغير – حروف القسم – حذف تنوين العلم إذا وصف بأين – النون الثقيلة والخفيفة – الفعل المضعف – المقصود والممدود – العدد – بناء الأفعال "صيغها" – الإمالة – همزة الوصل – التقاء الساكنين – الوقف – حروف الزوائد – الإعلال– الإبدال – الإدغام.

تلك هي أمهات المسائل النحوية التي شغلت أذهان العلماء بعد سيبويه، أما الكتاب الذي اشتمل عليها فكان موضوع الدرس والشرح والتعليق، شرحه علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ هـ، وهو تلميذ سيبويه، وشرحه أبو السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨

هـ شرحًا نال إعجاب المعاصرين له، وشرحه أبو الحسن علي سليمان[1] الرماني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، وأبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب[2] المتوفى سنة ٦٤٤ هـ، وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وعني بشرح شواهد سيبويه أبو العباس محمد بن يريد المبرد، والأعلم يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري[1] المتوفى سنة ٤٧٦ هـ، وعبد الله بن الحسين أبو البقاء العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ هـ وغير هؤلاء كثيرون.

---

[1] الرماني: أبو الحسن الرماني: هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني، من كبار النحاة، أصله من سامراء، وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤ هـ، ومن كتبه كتاب التفسير، وشرح أصول ابن السراج، وشرح سيبويه، ومعاني الحروف.

[2] ابن الحاجب: هو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب، ولد بإسنا من صعيد مصر، وكان أبوه كرديًا يتولى الحجابة للأمير عز الدين الصلاحي، فعرف بأبيه. قدم القاهرة صغيرًا، وحفظ القرآن، وتفقه في الدين على مذهب الإمام مالك، وتلقى القراءات، وشارك في جميع العلوم، ولكن غلب عليه علم العربية، ثم رحل إلى دمشق، فقرأ بجامعها أمالى في النحو على مواضع من المفصل والكافية، ثم عاد إلى الإسكندرية، وتوفي بها سنة ٦٤٤ هـ، ومن مؤلفاته: كتابا الكافية في النحو، والشافية في الصرف، وهما مطبوعان، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل، وهو مخطوط، والأمالى في النحو مخطوط، ومنتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل في فقه المالكية، وهو مطول، اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب محظوظ.

[1] الشنتمري: هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأندلسي الشنتمري الملقب بالأعلم. كان نحويًا واسع الحفظ، جيد الضبط، كثير العناية بهذا الشأن، فكثرت الرحلة إليه، أخذ عن الافليلى وأبي سهل الحراني ومسلم بن أحمد، وأخذ عن الغساني وطائفة كبيرة، وقد كف بصره في آخر حياته، وكان مشقوق الشقة العليا شقًا كبيرًا، وله شرح الجمل لأبي القاسم الزجاجي، وشرح أبيات الجمل وهما مفقودان، وله شرح ديوان زهير، وشرح الشعراء الستة، وشرح شواهد سيبويه، وكلها مطبوعة، وتوفي بإشبيلية سنة ٤٧٦ هـ.

ونحن لا نجد أكثر الأحيان في كتاب سيبويه تلك الاصطلاحات النحوية التي أسرف في استعمالها النحاة بعده، والكتاب ملىء بالقياس والعلل، وقد استعملها في مهارة وكثرة، فهو يولد من الشىء أشياءً ويعلل ويقيس، ففي التصغير مثلًا يستقصي ما يصغر وكيف يصغر، ويفرض الفروض، فيتساءل: ""إذا سميت رجلًا بعين أو أذن فكيف تصغرهما؟ وإذا سميت امرأة بفرس فكيف تصغرها؟""، إلى كثير من أمثال ذلك، وكثيرًا ما يقول: ""والقياس كذا، أو والقياس يأباه""، ويقول: ""سألت الخليل عن قول العرب: ما أميلحه، فقال: لم يكن ينبغي أن يكون في القياس، لأن الفعل لا يحقر، وإنما تحقر السماء""، ولقد كان لأمثال هذه البحوث التي عالجها سيبويه وأسرف النحاة فيها من بعده أثر في تصعيب النحو، وخلق أشياء لم يقلها العرب، وتعميم مالم يعمموه. ومهما يكن من شىء فإن كتاب سيبويه قد ذاعت شهرته في عالم النحو، فكان دستور النحاة إلى يومنا هذا، وفيه يتجلى الأسلوب العلمي في عرض المسائل النحوية في تلك العصور.

مراجع البحث:-

"١" القواعد النحوية مادتها وطريقتها للأستاذ عبد الحميد حسن.

"٢" "إحياء النحو" للأستاذ إبراهيم مصطفى.

"٣" "دائرة المعارف" للبستاني.

"٤" "تاريخ الفلسفة في الإسلام" لدي بو.

"٥" "الوسيط في الأدب العربي وتاريخه" للسكندري وعناني.

"٦" "النحو الجديد" للأستاذ عبد المتعال الصعيدي.

"٧" "إعجام الإعلام" للمرحوم الأستاذ محمود مصطفي.

"٨" "الفهرست" للمرحوم أمين "بك" واصف.

"٩" "الكتاب" لسيبويه.

"١٠" كتاب "الرد على النحاة" لابن نضاء القرطبي.

"١١" "الآداب السامية" للأستاذ محمد عطية الإبراشي.

"١٢" "تاريخ اللغات السامية" لإسرائيل ولفنسون.

"١٣" "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجي زيدان.

"١٤" "المنهاج في الأدب العربي وتاريخه في عصر بني أمية وصدر الإسلام" لمحمود أحمد ناصف.

"١٥" "الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية" لفون كريمر.

"١٦" "الأعلام" للزركلى.

"١٧ " "فقه اللغة" للدكتور علي عبد الواحد وافي.

" ١٨" العربية "دراسات في اللغة واللهجات والأساليب" ليوهان فك " ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار".

"١٩" "منطق أرسطو والنحو العربي" للدكتور إبراهيم مدكور.

ابن سينا الطبيب الفيلسوف المربي والعالم النفسي

"٢٧٠ هـ – ٤٢٨ هـ"

نشأته وحياته:

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا الحكيم المشهور. كان أبوه من أهل بلخ[١]، وانتقل إلى بخارى[٢]، وهي يومئذ حافلة بالعلماء في زمن بن منصور الساماني من ملوك الدولة السامانية، وهي دولة فارسية نشأت بعد انقسام الدولة العباسية إلى عدة دويلات، وكان أبوه من العمال الكفاة، تولى العمل بقرية من ضياع بخارى يقال لها: خرميثن، وقيل إن الرئيس ابن سينا ولد بها، واسم أمه ستاره، وهي من قرية تدعى ""أفشنة"" بالقرب من خرميثن. ويقول ابن أبي أصبيعة في طبقاته إنه وُلد في هذه القرية، ويؤيده القفطي[٣]، ولكن ابن خلكان هو الذي

---

[١] بلخ: Bactres مدينة بقطر القديمة بين جوزجان وطخارستان. فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب. وفيها نبغ أبو زيد البلخي في غزة القرن الرابع. واضع كتاب صور الأقاليم، وهو من أقدم كتب الجغرافيا عند العرب.

[٢] بخارى: من بلاد ما وراء النهر، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٠ هـ وكانت قاعدة الدولة السامانية التي ظهرت فيما وراء النهر سنة ٨٧٤ هـ. وأول أمرائها نصر بن أحمد بن سامان وهي وطن أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين، صاحب الجامع الصحيح، وبقربها قرية اسمها خرمثين. ولد فيها الشيخ الرئيس ابن سينا سنة ٣٧٠ هـ.

٣ القفطي: هو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف وزير حلب، ولد بمصر في مدينة قفط من بلاد الصعيد. وبعد أن تفقه في العلم أقام في بيت المقدس.

روى أنه ولد بخرميثن. ولد ابن سينا في أسرة له اشتغال بخدمة الدولة، وتلقى العلوم العقلية والشرعية، وكان أبوه من الإسماعيلية [1]وكذلك أخوه ولهما نظر في الفلسفة وتعلق بها. وكان أبوه يحضر له المعلمين، ويستقبل في داره أهل العلم والفلسفة، كأبي عبد الله الناتلي[2] الذي كان يدعي التفلسف. ويقال إن البيت الذي نشأ فيه كانت تسوده تقاليد فارسية قوية، ومبادئ معارضة للإسلام، وقد نضج عقله وجسمه نضوجًا قويًا سريعًا منتجًا؛

ثم تولى القضاء بحلب أيام الملك الظاهر. وسماه: القاضي الأكرم، أو الوزير الأكرم. وله كتاب إخبار الحكماء. وهو مطبوع بمصر. وتوفي سنة ٦٤٦ هـ.

[1] الإسماعيلية: فرقة من الشيعة سميت بهذا الاسم؛ لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق الإمام السادس. وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر لابنه إسماعيل. وكان جعفر قد عين ابنه إسماعيل خلفًا له، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني (موسى)؛ لأنه لقي إسماعيل ثملًا. ولكن الإسماعلية لم يسلموا بنزع الإمامة من إسماعيل، لأنهم كانوا يرون أن الإمام معصوم، وأن شرب الخمر لا يفسد عصمته، وأنه يجوز لله أن يأمر بشيء ثم ينسخه على نقيض ما قرر جعفر. وتوفي إسماعيل بالمدينة سنة ١٤٣ هـ (٧٦٠– ٧٦١ م) أي قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام، ودفن في مقبرة بقيع الغرقد. وقد انتشرت الإسماعيلية في فارس والشام والهند وغيرها. ومن معتقداتهم أنهم ينكرون صفات الله ويقولون إنه فوق متناول العقل، وإن العقل عاجز عن إدراك كنهه. ويقولون إنه لم يخلق العالم خلقًا مباشرًا، وإنما أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإدارة وهو الأمر، وإن العقل الكلي محل لجميع الصفات الإلهية، وهو عندهم الإله ممثلًا في مظاهره الخارجية، ولما كانت الصلاة لا تؤدى لكائن لا يُدرَك، فهي في رأيهم تؤدى لمظهره الخارجي؛ أي العقل الذي أصبح بذلك الإله الحقيقي عند الإسماعيلية، وربما أنه ليس في مقدور الإنسان أن يصل إلى معرفة ذات الله وإنما يعرف العقل وحده، لهذا يسمي الإسماعيلية العقل الحجاب أو المحل أو الصلة أو النفس أو الأول.

[2] الناتلي: نسبة إلى ناتلة، وهي مدينة بطبرستان، نُسب إليها قوم من أهل العلم، منهم أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عمر الحلبي الناتلي المتوفى سنة ٥١٧ هـ.

فقد قرأ الناتلي كتاب إيساغوجى[1]، وكتاب إقليدس[2]، وكتاب المجسطى[3]. وقد أظهر أبو علي ذكاءً خارقًا؛ فقد كان يشرح لأستاذه، ويفهمه رموزًا وإشكالات في هذه الكتب، لم يكن أستاذه يعرفها من قبل، ثم اشتغل أبو علي بتحصيل العلوم الطبيعية والإلهية، وأقبل على تعلم صنعة الطب فبرع فيها براعة منقطعة النظير.

وكان الشيخ الرئيس يداوي المرضى لا لينال المال ويتخذ الطب وسيلة إلى التكسب؛ ولكن لإشعاع ما في نفسه من مزيد الولع بعلم الطب. ولما ذاع

---

[1] إيساغوجى هو اقتباس من كتاب المدخل الى مقولات أرسطو الذي ألفه فرفوريوس الصوري، يقول صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: إن ابن المقفع هو الذي نقل هذا الكتاب من اليونانية مباشرة، على حين يذكر ابن النديم في الفهرست أن أيوب بن القاسم هو الذي نقله الى العربية عن ترجمة سريانية. ويتناول إيساغوجى من مسائل المنطق الحد والتعريف، والقضايا أو الحكم، والتضاد والتناقض، والقياس والجدل والخطابة والشعر والسفسطة.

[2] إقليدس (Euclid): فليسوف يوناني رياضي، قيل إنه ولد في الإسكندرية، وفتح مدرسة لتعليم الرياضيات، فصارت أشهر مدرسة في مصر، وأشهر كتبه كتابه المعروف بأصول إقليدس، منه قسم في الهندسة ولايزال يُعتمد عليه في مدارس إنجلترا، وقد اشتغل العرب بهذا الكتاب وشرحوه، وممن شرحه نصير الدين الطوسي. وإقليدس لفظ يوناني مركب من (اقلى) بمعنى المفتاح و(دس) بمعنى المقدار أو الهندسة، فمعناه مفتاح الهندسة. وهو غير إقليدس الميفاري الذي سوفسطائيًا ماهرًا.

[3] المجسطى: كلمة يونانية معناها الترتيب أو البناء الأكبر أو العظم. وهو أحسن ما صنف في علم الهيئة القديمة، وقد وضعه بطليموس من الحكيم، ونقله إلى العربية إسحاق بن حنين بن إسحق العبادي، توفي ببغداد في ربيع الثانى سنة ٢٩٩ هـ، وكان ممن اشتهروا بعلم الطب. ومن العجيب أن أكثر ما ترجمه كان من كتب الحكمة من كلام أرسطو وغيره، كما نقل إلى العربية أصول الهندسة لإقليدس، ولقب إسحاق (العبادي) نسبة إلى عباد الحيرة، وهم عدة بطون من قبائل شتى نزلوا الحيرة وكانوا نصارى.

صيته أقبل عليه المشتغلون بهذه الصنعة، يقرأون عليه ما دون فيها من التجارب وأنواع المعالجات، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، وكان أبو علي ينفق وقته كله في البحث والمطالعة والتمحيص والتنقيب وعمل التجارب. وكان من عادته إذا أشكل عليه أمر من الأمور أن يتوضأ ويذهب إلى المسجد؛ ليصلي ويدعو الله أن يفتح عليه، ليفهم ما خفي عنه من معضلات العلم، وقد حدثوا أن الأمير "نوح بن نصر الساماني" مرض، فطلب أبا علي ليعالجه، فعالجه حتى شفيّ من مرضه، ثم اتصل به، وكان لنوح بن نصر مكتبة ذائعة الشهرة، فانقطع أبو علي لقراءة ما فيها من كتب، وكان فيها كثير من كتب الأوائل في كل علم وفن، فأحاط بما فيها وحصل شواردها.

وحينما ناهزت سنة الثامنة عشرة كان قد فرغ من تحصيل مختلف العلوم. ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره توفي والده، ثم اضطربت أحوال الدولة السامانية، فاضطر أبو علي إلى مغادرة بخارى، وأخذ يضرب في الأرض، فذهب إلى الجرجانية[١]وهي قاعدة خوارزم[١]، ثم انتقل إلى الرى[٢]

---

[١] الجرجانية: وتسمى أيضا جرجان الأقصى، وهي قاعدة خوارزم، وكان بها سراج الدين السكاكي صاحب مفتاح العلوم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ. وكانت دار إقامة أبي الريحان البيروني أشهر علماء النجوم والرياضيات المتوفى سنة ٤٣٠ هـ.

[١] خوارزم: وهي بلاد (خان خيوة) الآن، وتمتد إلى بحيرة أرال (Oxien) التي سميت عند العرب ببحر خوارزم. وأشهر مدنها الجرجانية (الجرجان الأقصى) وخيوق وهز رأسب ودرغان. ومن قرى الجرجانية زمخشر وفيها ولد جار الله الزمخشري إمام عصره في اللغة والتفسير والحديث، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ.

[٢] الري (Rhages): كانت مدينة عظيمة ببلاد الجبال، واسمها القديم (راغة) ومنه اشتق الاسم العربي. فتحها نعيم بن مقرن في خلافة عمر. وفيها ولد الخليفة هارون الرشيد. وهي وطن

ومنها إلى همذان[٣]، وصار وزيرًا لشمس الدولة أبي طاهر ابن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن ابن بويه الديلي صاحب همذان وعرق العجم، غير أن عسكر شمس الدولة لم يجدوا في أبي علي ضالتهم، فثاروا به، ونهبوا داره، وقبضوا عليه، فاضطر شمس الدولة إلى نفيه إرضاءً لهم، ولكنه ما لبث أن أعاده إليه حين عاوده المرض. ولما مات شمس الدولة خرج أبو علي من همذان قاصدًا أصبهان[١]، واتصل بعلاء[٢] الدولة أبي جعفر بن

محمد بن زكريا الرازي الطبيب من نوابغ القرن الثالث الهجري، اشتهر بالطب والكيمياء، وتُرجمت كتبه إلى اللاتينية واليونانية والإنجليزية، ويسميه الإفرنج (**Rases**) وفخر الدين الرازي صاحب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ.

وهي الآن أطلال دراسة على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران، وتعرف باسم مسد عبد العظيم، واسمها القديم عند اليونان (إقروبوس)، والنسبة إلى الري على غير قياس.

[٣] همذان: مدينة ببلاد الجبال من فارس واسمها عند الآشوريين (هجماتانا) وعند اليونان (اكباتان) (**Ecbatan**). وكانت قاعدة مملكة ميديا القديمة (**medie**). وبها توفي الرئيس علي بن سينا سنة ٤٢٨ هـ. وهي وطن أبي الفضل بديع الزمان صاحب الرسائل والمقامات المتوفى سنة ٣٩٨ هـ بمدينة هراة. وطائفة من أهل العلم والفضل.

[١] أصبهان: هي مدينة قديمة ببلاد الجبال كانت تسمى (**Aspanada**) دخلها الإسكندر المقدوني وأسلمها للنهب والسلب. وهي وطن أبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ صاحب الغاني. وكانت قاعدة ركن الدولة بن بويه الذي استوزر ابن العميد الكاتب المشهور، كما استوزر ابنه فخر الدولة الصاحب بن عباد. وإليها ينسب الفتح بن علي البنداري مترجم الشهنامة الفارسية المتوفى سنة ٦٢٣ هـ. وأبو القاسم الراغب الأصفهاني من أئمة اللغة والأدب المتوفى سنة ٥٠٤ هـ. وعماد الدين الأصفهاني الكاتب المشهور المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

[٢] علاء الدولة: هو الأمير أبو جعفر علاء الدولة بن دشمنزيار. وكانت والدة شمس الدولة صاحب همذان قد ولته على أصبهان. فاستقرت فيها قدمه وعظم شأنه، ولما مات شمس الدولة استولى على همذان وغيرها، وقبض على أمراء الديلم وسجنهم بقلعة بالقرب من أصبهان. وتوفي علاء الدولة سنة ٤٣٣ هـ.

كاكويه، فأحسن إلى أبي على وأكرمه، وبقى عنده مدة معززًا مكرمًا.

وكان ابن سينا قوي المزاج، تغلب عليه شهوة النساء، فكان ذلك مما أنهك جسده، وأضعف بدنه، وحين كان بأصبهان مرض بالقولنج، وهو مرض معوي يؤدى إلى احتباس الثقل والريح بالجسم، ولما اشتدت عليه وطأة المرض حقن نفسه ثماني مرات في يوم واحد، ويقال إن ذلك كان سببًا في أن قرح بعض أمعائه، وقد ازدادت عليه، واستشرى المرض في بدنه حين كان ينتقل مع علاء الدولة بين همذان وأصبهان، وأخيرًا وصل إلى همذان وقد ضعفت صحته كثيرًا، فأهمل التداوي، وقال عن نفسه: ""إن المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره، فما بي من حاجة إلى المعالجة""، ويقال: إنه اغتسل، وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم لمن عرفه، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام، وما زال كذلك حتى وافته منيته بهمذان في يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ وهو في الثامنة والخمسين من عمره، وقبره بهذه المدينة، ومازال يزار إلى اليوم.

صلته بعلماء عصره:

اتصل أبو علي بكثير من علماء عصره، ومنهم ابن مسكويه [١] وأبو الريحان اليرونى [٢]، وأبو القاسم الكرماني، والطبيب أبو الفرج بن طيب ابن الجاثليق، وأبو نصر العراق، وأبو الخير بن الخمار.

---

[١] ابن مسكويه: هو أبو علي الخازن أحمد بن محمد الملقب بمسكويه. كان مجوسيًا فأسلم. وجمع بين علوم الأدب والفلسفة والكيمياء، واشتغل بطلب الذهب بالطبخ، فلم يحصل

وقد تعمق أبو علي في دراسة المنطق والطبيعة والرياضة والطب، وفاق أساتذه عصره في هذه العلوم، أما علم ما بعد الطبيعة فيقال فيما يروى عنه إنه تعب في الوقوف عليه حتى لقي دلّالًا من باعة الكتب القديمة، فعرض عليه كتابًا فيما وراء الطبيعة لأبي نصر الفارابي، وقد دفع أبو علي الدلال ورده ردًا غير جميل في أول الأمر، غير أنه ما لبث أن

على طائل ثم ندم وخدم ابن العميد، وتولى له مكتبته، كما قيل إنه كان أثيرًا عند السلطان عضد الدولة، وكان طبيبًا لغويًا مؤرخًا.

ويذكر القفطي أنه وضع كتبًا في الطب، وله في التاريخ كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم، وقد خلف مذهبًا فلسفيًا في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق إلى يومنا هذا، وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الإسلامية، وله في ذلك كتاب تهذيب الأخلاق، وهو مطبوع متداول. وتوفي سنة **٤٢١** هـ. ومسكويه تركيب أعجمي كسيبويه ومعناه رائحة المسك.

[٢] البيروني: هو محمد بن أحمد أبو الريحان الخوارزمي. كان لغويًا أديبًا له في الرياضيات والنجوم اليد الطولى. سافر إلى الهند ودرس لغة أهلها وثقافتهم، ودوَّن دراسته في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العلم أو مرذولة)، وهو من أمهات الكتب التي يرجع إليها في علوم الهند، ومن مؤلفاته أيضًا: (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وهو يدل على غزارة علمه، وإلمامه الواسع بلغات الأمم وتاريخها وثقافتها. وقد أفاد البيروني العربية، فقد جعل أساليبها مرنة طيعة تشتمل على دقائق التفكير الهندي، والكتابان مطبوعان. وللبيروني نظر فلسفي، فهو يرى أن العلم اليقيني لا يحصل إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي، وعنده أن مطالب الحياة تجعلنا في حاجة إلى فلسفة عملية نميز بها العدو من الصديق. ومات سنة **٤٣٠** هـ. وسمي البيروني بلغة أهل خوارزم، وهم يسمون الغريب (بيروني)، لأنه لما طالت غيبته عن بلاده عدّوه غريبًا عنها، فلقبوه بهذا اللقب، وقال السمعاني في اللباب: سمى بذلك لأنه سكن بظاهر مدينة خوارزم، وهو خاص بالغرباء واسمه بيرون، فننسب إليه، وقيل لقب بالبيرونى نسبة إلى بلدة بيرون من بلاد الهند نشأ بها، ولفظ بيرون بكسر الباء وضم الراء وبعدها واو ساكنة ثم نون.

أقبل عليه ثانيًا، واشترى منه الكتاب. ولما رجع به إلى منزله وقرأه، تفتحت أمام ذهنه السبل، ففرح وتصدق على الفقراء شكرا لله. ومن هذه الرواية يتضح لنا أن أبا علي تتلمذ على كتب الفارابي [1].

وكان لأبي علي طريقة خاصة في تحصيل العلم يحدثنا عنها بقوله: ""لازمت العلم، وكنت كلما أحار في مسألة ترددت إلى الجامع وصليت، وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى يفتح لى المغلق منه، ويتيسر المتعسر. وكنت أشغل ليلًا في دارى بالكتابة والقراءة، فإن غلبنى النوم، أو شعرت بشغف عدلت إلى شرب قدح من الشراب، ريثما تعود إليّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، فإن غلبني النوم حلمت بالمسائل التي كنت أعالج حلها، حتى إن كثيرًا منها اتضح لى بالمنام"".

آراؤه في التربية:

أسهم ابن سينا بنصيب موفور في وضع مبادئ التربية الإسلامية، وله في هذا السبيل آراء قيِّمة لا تقل في طرافتها وجدتها وقوة أثرها من الناحية العملية عن آراء أعظم فلاسفة التربية في عصرنا، ومن تلك الآراء رأيه في الإعداد المهني لكسب العيش، وهو يجمع فيه بين القيم المعنوية والاعتبارات النفعية، فيقول: ""إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن

[1] الفارابي (٢٦٠ – ٣٣٩ هـ) (Alfarabi) هو أبو نصر محمد ابن أوزلغ، ولد بالفاراب من أعمال خراسان في سنة ٢٦٠ هـ وتوفي سنة ٣٣٩ هـ. وكان في أول أمره ناطورًا في بستان بدمشق، وكان يشتغل بالحكمة بالليل على ضوء قنديل حارس البستان، وهو فيلسوف المسلمين، والمعلم الثاني، وأكثر تصانيفه في رقاع. شرح المجسطى وأكثر كتب أرسطو، وله كتاب السياسة المدنية، والسيرة الفاضلة، وكتاب الموسيقى والمبادئ الإنسانية.

وحفظ أصول اللغة، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه، فإن أراد الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه، وطورح الحساب، ودخل به الديوان، وعُنيّ بخطه، وإن أريد أخرى أُخذ به فيها"".

وهو بهذا يقرر مبدأ التخصص في المادة الذي تنادي به التربية الحديثة وله رأي مشهور في تربية الأولاد يدور حول المنهج الأولي للتربية الإسلامية فيقول: ""ينبغي البدء بتعليم القرآن بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جسميًا وعقليًا، وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء، ويلقن معالم الدين، ثم يروي الصبي الشعر، مبتدئًا بالرجز ثم بالقصيدة لأن رواية الرجز أسهل وحفظه أيسر، إذ أن بيوته أقصر، ووزنه أخف، على أن يختار من الشعر ما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل، وما حث منه على بر الوالدين واصطناع المعروف، وقرى الضيف، فإذا فرغ الصبي من حفظ القرآن، وألم بأصول اللغة، نظر عند ذلك في توجيهه لما يلائم طبيعته واستعداده[١]"".

ويعني ابن سينا بالجانب الخلقي من التربية، فهو حريص كل الحرص على أن ينشأ الطفل نشأة دينية صحيحة، ويرى أن التربية الدينية كفيلة بتحقيق هذه الغاية، ثم يضيف إلى ذلك شيئًا آخر؛ وهو ألا يُعلَّم الطفل من الشعر إلا ما تحقق فيه جانب الخير، والحث على مكارم الأخلاق، وابن سينا على حق في حين يبدو لنا حريصًا على التربية

[١] كتاب السياسة لابن سينا.

الخلقية، فالأخلاق هي كل شيء، والحياة هي الأخلاق، ولا حياة بغير أخلاق. ومما يدل على عنايته بالناحية الخلقية من التربية قوله: ""وأن يكون الصبي في مكتبه مع صبية حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم؛ لأن الصبي عن الصبي ألقن، وهو عنه آخذ، وبه آنس""، فهو يعترف بأثر التقليد في التربية والقدوة الحسنة، والتقليد أظهر شيء في حياة الطفل الأولى، فهو أميل إلى تقليد ما يراه، ويقع تحت حسه، وابن سينا يستخدم الميل الفطري في الطفل إلى الاجتماع بغيره من الأطفال، واتخاذه أداة فعالة من أدوات التربية الخلقية، ولكنه لا يطلق العنان للطفل ليجتمع بأي نوع من الأطفال، وهو يشترط أن يكون اجتماعه بأطفال طيبين.

وله غايات أخرى من اجتماع الطفل بمثل هؤلاء الأطفال، فهو لابد أن يرى فيهم ما يثير حماسته، فيندفع إلى اللحاق بهم؛ ليبلغ شأوهم في الفهمة وغيره: لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى، وأغرب ما سمع، فتكون غرابة الحديث سببًا للتعجب منه، والتعجب منه سببًا لحفظه، وداعيًا إلى التحدث، ثم إنهم يترافعون ويتعارضون ويتقارضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم، وتحريك لهممهم، وتمرين لعاداتهم[١].

ويعطي ابن سينا الشعر جانبًا من عنايته؛ لأنه يتخذه وسيلة من وسائل التربية الخلقية، ولكنه يقرر ألا يدرس منه إلا ما قيل في فضل الأدب ومدح

---

[١] كتاب السياسة لابن سينا.

العلم، وذم الجهل وعيب السخف وما حث على بر الوالدين، واصطناع المعروف، وقرى الضيف، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

وإن ابن سينا لا ينسى وهو يقرر تلك المبادئ الخلقية أن يحدثنا عن رأيه في العقاب، وبذلك يضع لنا صورة كاملة عن تربية الوليد، وما ينبغي أن يؤخذ به، فيقول: ""إنه من الضروري البدء بتهذيب الطفل، وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام، قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة، التي يصعب إزالتها إذا ما تمكنت في نفس الطفل، أما إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب، فينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر، فلا يؤخذ الوليد أولًا بالعنف، وإنما بالتلطف، ثم تُمزج الرغبة بالرهبة، وتارة يستخدم العبوس، أو ما يستدعيه التأنيب، وتارة يكون المديح والتشجيع أجدى من التأنيب، وذلك وفق كل حالة خاصة، ولكن إذا أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب، فينبغي ألا يتردد المربي على أن تكون الضربات الأولى موجعة، فإن الصبيى يعتبر الضربات كلها هينة، وينظر إلى العقاب نظرة استخفاف، ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد، وتوسط الشفعاء؛ لإحداث الأثر المطلوب في نفس الطفل[١]"".

أثره في الثقافة والتأليف:

إن ابن سينا هو فيلسوف الشرق العظيم، وقد أنصفه المتقدمون والمتأخرون من علماء العرب والإفرنج، فاعترفوا بأنه من أصحاب الثقافة

---

[١] كتاب السياسة لابن سينا.

العالية، والاطلاع الواسع، والمواهب النادرة، والعبقرية الفذة، اشتغل بالطب والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق، وقد ترك في كل ذلك مجهودًا عظيمًا ساعد في رقى الإنسانية، ويلقبه بعض كتاب الفرنجة بأرسطو[٢] الإسلام وأبقراطه[١]، ويحمل الأستاذ "دي بور" صاحب كتاب "تاريخ الفلسفة الإسلامية" على ابن سينا، فيقول: ""إنه رجل من المشتغلين بأمور الحياة الدنيوية، والمقبلين على متعها، فماله ولمشقة العناية بفلسفة أرسطو؟""، وهو بهذا الادعاء يريد أن يخطئ مؤرخى الفلسفة الإسلامية، الذين يعتقدون أن ابن سينا أعلى من الفارابي[٢] كعبًا في تقرير مذهب أرسطو، ولعل الرواية التي تقول: إن ابن سينا استعصى عليه فهم كتاب أرسطو فيما وراء الطبيعة بعد أن قرأه أربعين مرة، وأنه

---

[٢] أرسطو، أو أرسطو طاليس (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق. م) (**Aristore**) ولد في استاغيرا) (**Stagire** من بلاد مقدونيا على خليج (ستريمون)، وكان أبوه نقوماخس طبيبًا (لامينطس) ملك مقدونيا والد فيليب. وجد الإسكندر الأكبر. وبعد وفاة والده كفله وصيه (بروكسين)، ثم أرسله وهو في الثامنة عشرة من عمره إلى أثينا مدينة الحكمة، فمكث فيها عشرين عامًا، متتلمذًا لأفلاطون. وقد امتاز على أقرانه فلقبوه بـ(القارئ). ودعاه أفلاطون عقل المدرسة. وكان معلمًا للإسكندر الأكبر. وحين ذهب الإسكندر إلى غزو آسيا بقي أرسطو ببلد اليونان، وكان الإسكندر يرسل إليه من آسيا أموالًا كثيرة، ونماذج الحيوانات النادرة، والنظم السياسة للبلاد المحتلة. وكان أرسطو يلقي دروسه على تلاميذه ماشيًا، فأطلق على مدرسته (مدرسة المشائين) (**Periparericiens**) وتعد مؤلفاته دائرة معارف تناولت جميع العلوم البشرية التي كانت معروفة في الجيل الرابع قبل الميلاد.

[١] أبقراط: هو بقراط بن هيراقليدس طبيب مشهور، وكان يلقب (أبا الطب)، وهو من أكابر علماء اليونان وحكمائهم. ولد بجزيرة (كوس) سنة ٤٦٠ قبل الميلاد، ومات بمدينة (لاريسا) في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

[٢] تقدمت له ترجمة مختصرة.

يئس من فهمه، فلما أتيح له الاطلاع على كتاب الفارابي في شرح أغراض أرسطو فيما وراء الطبيعة انفتحت له أبواب ما استغلق عليه، هذه الرواية تؤيد دعوى "دي بور" الذي يريد أن يقول: إن الفارابي كانت له صفات الفلاسفة، بدليل انقطاعه للفلسفة، أما ابن سينا فلم يكن منقطعًا لها، ومع ذلك فإن "دي بور" يرجع فيشيد بابن سينا فيقول فيه: إنه عرف كيف يجمع مادة بحثه التي اقتبسها من كل صوب جمعًا، تتجلى فيه المهارة، كما عرف كيف يعرض بحوثه في صورة سهلة الفهم، وإن لم يسلم في هذا من تدقيق متكلف، وكان يستثمر كل دقيقة من حياته استثمارًا تامًا، ففي أثناء النهار كان يوجه همه إلى العناية بشئون الدولة، أو يشغل بالتدريس، وكان يخصص بعض ليله للاستمتاع بمحافل الصداقة والأنس، واجتناء لذات الهوى، وكم شهدته الليالي عاكفًا على التأليف، قلمه بيده، وقدح الشراب إلى جانبه. ويفهم من هذا أن ابن سينا لم ينقطع للفلسفة، كما كان شأن فلاسفة اليونان، وكما كان شأن الفارابي، الذي وقف حياته على التأمل الفلسفي، غير أن ذلك كله لا يغض من شأن فيلسوف الإسلام، وطبيبه العظيم، كما سيتضح بعد.

كان ابن سينا مترجمًا صادق التعبير عن روح عصره، كما كان متصلًا بالحياة العامة، ولذلك لم يضيع وقته كله في قراءة شراح أرسطو، غير أنه مما يرفع أنه كان يمزج علم اليونان بالحكمة الشرقية، وكان يقول: ""لقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا""، وقد أحصى العلامة الألماني "وستنفلد" من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة من الكتب في

علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقا والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها، والكثير من هذه المؤلفات نقل إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية، ومنها كتاب "القانون"، وكتاب "قلب الإنسان"، وكتاب "الأرجوزة في الطب"، وكتاب "الشراب"، وكتاب "مختصر الحيوان"، وكتاب "الحجر الفلسفي"، وكتاب "السماء والعالم"، وكتاب "النفس"، وكتاب "ما بعد الطبيعة"، وكتاب "الطبيعات والكيمياء"، و"المنطق والحدود والتعريفات"، و"الفلسفة الأولى"، وكتاب "المبدأ والمعاد"، و"الأوساط الكلية"، و"المختصر الأوسط في المنطق"، وكتاب "القولنج والأدوية القلبية"، وكتاب "القضاء والقدرة"، و"الأجرام السماوية"، ومختصر في النبض، ومختصر إقليدس، وأقسام الحكمة، ورسائل إخوانية وسلطانية، وقد أحصى الأب جورج شحاتة قنواتي لابن سينا سينا مائتين وستة وسبعين كتابًا ورسالة، أودعها كتابًا ضخما له، يشبه أن يكون دائرة معارف خاصة، تتحدث عن آثار ابن سينا ومجهوداته، ويقال: إن الشيخ الرئيس وجالينوس العرب كان يكتب كل يوم خمسين ورقة من تصنيفه، ويحدثنا أبو عبيد الجوزجاني تلميذ ابن سينا عن سبب تأليف أستاذه كتاب "لسان العرب" فيقول: إنه كان بمجلس يضم عددًا كبيرًا من العلماء فناظرهم الشيخ، وقطعهم، إلى أن حانت مسألة في اللغة، فتكلم فيها، فقال أبو منصور الثعالبي[١] اللغوي:

[١] الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، من أوفر كتّاب القرن الخامس الهجرى إنتاجًا. ولد في سنة ٣٥٠ هـ في نيسابور (Nichapour) حاضرة خراسان، وتوفي في سنة ٤٢٩ هـ. وله مصنفات كثيرة في الأدب واللغة أهمها يتيمة الدهر في محاسن أهل

""أنت حكيم، وما نرضى كلامك""، فوجم ابن سينا، وعكف بعد هذا على كتب اللغة مدة، فصنف ثلاث رسائل ضمنها كثيرًا من الألفاظ الحوشية، مما لا عهد بها لأحد، ومنها يتألف كتابه "لسان العرب".

ولقد أضاف الشيخ الرئيس كثيرًا إلى ثروة البشر العلمية، على الرغم مما كان يحيط به من ظروف، فقد عاش في عصر كثرت فيه الفتن والاضطرابات، كما كان كثير التنقل نتيجة لأحداث عصره، وتعد مؤلفاته موسوعات حوت كثيرًا من أشتات العلم والحكمة والفلسفة والدين، وكل ما ابتكره المفكرون الأقدمون، وتمتاز هذه المؤلفات بمادتها الغزيرة، وبعقلية ابن سينا الجبارة وتفكيره واستنباطه وتجاربه، كما تتسم بطابع الدقة والعمق في البحث والترتيب، مما لا نجده في أكثر مؤلفات القدماء من علماء اليونان أو العرب، ولذلك يقول ""الشهرستاني"": ""إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة، ونظره الى الحقائق أعوص"".

وكان لمؤلفات ابن سينا أثر كبير في نهضة أوروبا العلمية، فامتدت آفاق النظر عند الغربيين، وأصبح للفكر العربي أثر بعيد في بلاد

العصر، تناول فيها شعراء عصره ومن قبلهم، ورتبهم بحسب أوطانهم، وكتاب الإعجاز والإيجاز، ومن أشهر كتبه في فقه اللغة (شمس الأدب في استعمال لغة العرب) وهو قسمان: الأول يبحث في أسرار العربية وخصائصها. والثاني ملاحظ على الأسلوب، وعنوانه مجاري كلام العرب برسومها، وما يتعلق بالنحو والإعراب منها، والاستشهاد بالقرآن على أكثرها، ويقال إن هذا الجزء منقول بحذافيره من كتاب فقه اللغة، ثم نشر الثعالبي القسم الأول من هذا الكتاب بعنوان فقه اللغة، وراج في صورته هذه رواجًا عظيمًا.

الفرنجة[1]، وكانت فلسفة ابن سينا تمثل هذا الفكر، فأصبحت تدرس في أكثر الجامعات الأوروبية، وما زال جانب منها إلى اليوم يدرس بالجامعات الكاثوليكية، ومن مؤلفاته التي نالت شهرة عظيمة القانون في الطب والشفاء في الحكمة:

١-كتاب القانون:

هو أعظم مؤلفات ابن سينا وأنفسها، اشتهر كثيرًا في ميدان الطب، وشغل به علماء أوروبا وأطباؤها زمنًا طويلًا، وكان موضع الدراسة والبحث والمرجع الأول في الطب في الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن السابع عشر للميلاد. جمع ابن سينا في هذا الكتاب كل ما عرف عن طب الأمم السالفة، وأضاف إليه كثيرًا مما ابتكره من أنواع العلاج ووسائل الفحص الطبي، وتشخيص الأمراض. ولقد نوه الطبيب الإيطالي المؤرخ "كاستليون" في كتابه "تاريخ الطب" المطبوع في سنة **١٩٣١** عن قانون ابن سينا، فقال إن ""تميز هذا الكتاب من كل ما سواه من كتب الطب في العصور الوسطى راجع إلى دقة ابن سينا في الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه، وترتيب الموضوعات

---

[1] الفرنجة (**Franks**) ذكر الفرنجة أولًا الكاتب الروماني (أمانيوس مرقلانوس) سنة **٣٥٨** م، ويطلق هذا الاسم على كل القبائل الجرمانية، وفي أوائل القرن الخامس انقسمت هذه القبائل خمس فرق، وقد استعمرت إحدى هذه الفرق أراضي الرين السفلى، وتغلبت على النفوذ الروماني في بلاد الغال، ثم أطلق اسم هذه القبائل على تلك البلاد، فسميت فرنسا. وفي الحروب الصليبية سمى العرب وأهل الشرق الأوروبين الذين زحفوا على البلاد المقدسة (الفرنجة) تعريبًا للفظ **Frank** .

الطبية التي عالجها، بحيث كفى الأطباء مئونة البحث في ذلك العصر فيما عداه"".

ويشمل القانون ما لا يقل عن مليون كلمة، وقد قُسِّمت أبوابه على حسب أدق التصانيف العلمية، ولذلك كان أول كتاب منظم على الأصول الحديثة في الأدب الطبي، وقد قسم فيه الأمراض لأول مرة في التاريخ إلى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية، وهو يشرح كل قسم شرحًا دقيقًا، ويفصل الكلام عن كل مرض تفصيلًا وافيًا، متحدثًا عن نشأته وأسبابه وأعراضه ومداواته ونتائجه. وقد تناول كتاب القانون بعض آثار الطب الهندي مع التعليق والشرح والنقد، فيفكر مثلًا كيف وصف الهنود أنواع القلق وأشكاله وخصائص كل منها، وأنهم كانوا يرون أن أكل اللبن مع الحوامض أو مع السمك يورث أمراضًا منها الجذام. وكان من بين ما تناوله القانون ما نعرفه اليوم بعلم الصحة، فقد استعرض الشيخ الرئيس في كتابه كثيرًا من الإرشادات الصحية، فيقول في الاستجمام بالماء البارد: ""إنما يصلح ذلك لمن كان تدبيره من كل الوجوه مستقصي، وكانت سنه وقوته وسحنته وفصله موافقًا، ولم يكن به تخمة ولا قيء ولا إسهال ولا سهر، ولا نوازل، ولا هو صبي، ولا شيخ، وفي وقت يكون بدنه نشيطًا، والحركات متواتية، وقد يستعمل ذلك بعد استعمال الماء الحار لتقوية البشرة، وحصر الحرارة الغريزية، فإن أريد ذلك يجب أن يكون ذلك الماء غير شديد البرد بل معتدلًا، وقد يستعمل بعد الرياضة، فيجب أن يكون الدلك قبله أشد من المعتاد، وأما

تمريخ الدهن فيكون على العادة، وتكون الرياضة بعد الدلك والتمريخ معتدلة وأسرع من المعتاد، وقليلًا قليلًا، ثم يشرع بعد الرياضة في الماء دفعة، ليصيب أعضاءه معًا، ثم يلبث فيه مقدار النشاط والاحتمال، وقبل أن تصيبه قشعريرة، ثم إذا خرج ذلك بما نذكره، وزيد في غذائه، ونقص من شرابه، ونظر في مدة عود لونه وحرارته إليه إن كان سريعًا علم أن اللبث فيه كان معتدلًا، وإن كان بطيئًا علم أن اللبث فيه كان أزيد من الواجب، فيقدر في اليوم الثاني قدر ما يعلم من ذلك، ومن أراد أن يستعمل ذلك، فليتدرج فيه، وليبدأ أول مرة من أسخن يوم في الصيف وقت الهاجرة، ويتحرز ألا يكون فيه ريح، ولا يستعمله عقيب القيء والاستفراغ والسهر، ولا على ضعف من البدن ولا من المعدة[1]"".

يقول العلامة " **Browne** " في كتابه "الطب العربي" عن قانون ابن سينا: ""إن طابعه الموسوعي وتنسيقه الدقيق، وتصميمه الفلسفي، بل لعل أسلوبه العنيف في الجزم أيضًا، مضافًا إلى شهرة المؤلف في غير الطب من ميادين الفكر، كل هذا أعطى القانون مكانة فريدة في الأدب الطبي في العالم، وقد استطاع أن ينسخ عمليًا مؤلفات الرازي وعلي بن عباس، بالرغم من قيمتها المعترف بها"".

ويقول السير "وليم أوسلر" في القانون: ""إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمان"".

وقد تُرجِم القانون إلى اللاتينية، ترجمه جيرار الكرماني في القرن

---

[1] القانون ج ٢ ص ,١٦٢

الثاني عشر، وكان على رأس النقلة من العربية إلى اللاتينية كما كان حنين[1] بن إسحق من زعماء الترجمة من اليونانية إلى العربية، ويقال: إن في المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين لا يعادلها ثمن، الأولى: نسخة من كتاب القانون طُبعت في روما باللغة العربية في أواخر القرن السادس عشر، أي في أوائل عهد الطباعة، وكانت لا تُعار إلا على منضدة مخصوصة، والثانية نسخة عربية من كتاب جالينوس في الطب العام، وقد كتب في أول صفحة منها: هذا الكتاب ملك أبي الحسين بن سينا المتطبب، وهذه العبارة بخط الرئيس ابن سينا نفسه. وقد ظل القانون يدرس في الجامعات الأوروبية، وبخاصة في جامعة مونبلييه، حتى أواخر القرن الثامن عشر.

ابن سينا الطبيب:

أودع الشيخ الرئيس كتابه القانون كما تقدم في البحث كثيرًا من أنواع العلاج، ووصف الأمراض، وان يفوق من سبقه من أطباء اليونان والرومان والعرب بدقته في مناقشة الحالات المرضية، ومهارته العظيمة في فن تشخيص الأمراض "**Semlologie**"، وبحث أسباب المرض،

---

[1] حنين بن إسحق: هو حنين بن إسحق العبادي الطبيب النسطوري (٨٠٩ – ٨٧٣)، كان يدرس الكتب الإغريقية في دار العلم والحكمة التي أنشأها المأمون ببغداد؛ ويترجمها إلى العربية، وقد طاف بسوريا وفلسطين في طريقه إلى الإسكندرية ليصيب كل ما وصل إليه العالم القديم من علم بالطب، ولكي يزداد علمًا بالإغريقية، وفضلًا عما نقله إلى العربية من المقالات الطبية والرياضية، فقد ترجم كتب المقولات والطبيعيات وعلم الأخلاق الكبير لأرسطو، والجمهورية والقوانين ومحاورة طيماوس لأفلاطون.

وكان الطب إلى أيامه يتناول ما ترجم من كتب أطباء اليونان، وما نقل عن أطباء مدرسة "جند يسابور[1]" وبعض المعارف الطبية السريانية الممتزجة ببقايا طب الكلدان [2]القدماء، وطب الهنود، وتجارب العرب الطبية في العصر الجاهلي.

هذه المعارف كلها انصهرت وتفاعلت، ثم تبلورت في كتاب "الحاوي" للرازي[1]، وقد درس ابن سينا كل ذلك دراسة العالم المحقق، ثم أضاف إلى معلومات السابقين ما وصل إليه باجتهاده، وعقيلته المثالية، ومن أشهر ابتكاراته الطيبة فحوصه الدقيقة، ودراساته للدورة الدموية وتشريح القلب، مما لا مثيل له عند اليونان والرومان، ومما يدل

---

[1] جنديسابور: اسم مدينة بخوزستان بناها سابور بن اردشير من الدولة الساسانية في أواسط القرن الثالث للميلاد لأسرى الروم، وفي هذه المدينة أسس كسرى أنوشروان (ى٥٣١ – ٥٧٩) م معهدًا للدراسات الفلسفية والطبية، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين، وتخرج فيه عدد كبير من العلماء والفلاسفة كآل بختيشوع وغيرهم، ويعد هذا المعهد من أكبر معاهد العلم في القرون الوسطى، أما المدينة فقد فتحها عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب.

[2] الكلدان أو الكلدانيون: هم أمة سامية قديمة عاشت في وادي دجلة والفرات بين (٤٠٠٠– ١٣٠٠) ق. م، وكانت لها حضارة تضارع المصريين في القدم، إن لم تكن أقدم منها، ومن أعظم ملوكهم حمورابي الذي اشتهر بقانونه الذي يعد من أقدم القوانين الوضعية.

[1] الرازي: هو أبو بكر محمد بن زكريا، الطبيب الكيميائي المشهور المتوفى سنة ٣١١ هـ، وهو من أهل الري، وكان أول أمره ضاربًا بالعود، ثم أكب على كتب الحكمة والطب، وعاين بنفسه صناعة التحليل والكيمياء، فاستنبط كثيرًا من المركبات الكيميائية، مثل زيت الزاج (الحامض الكبريتي) والغول (الإسبرتو). وكان يقيم بالري وبغداد. ويتنقل بالبلدان حتى مات سنة ٣١١ هـ، وله مائتا مؤلف من أشهرها كتاب الحاوي في الطب.

على دقة ملاحظاته الإكلينكية أنه قال: إن التهاب البلور "أي ذات الجنب"، والتهاب الرئة "أي ذات الرئة"، قد ينتج عنهما أعراض سرسامية بهيئة مضاعفات، وأن التهاب السحايا في تلك الحالات يعتبر نذيرًا سيئًا، فقد تأتي بعده الوفاة عادة، كما شرح ابن سينا أمراض الجهاز الهضمي شرحًا وافيًا، يشهد له بالبراعة في عالم الطب، وهو الذي يقول بضرورة التمييز الدقيق بين الأمراض عند تشخيصها، فلابد من التمييز بين تشخيص ذات الجنب، وبين التهاب البلورا الحقيقي، وبين الالتهاب البسط للعضلات، والالتهاب نصف الصدري " الحيزوم" وخراج السطح الأعلى للكبد.

أما في الأمراض العصبية، فقد كان ابن سينا طبيبًا مبرزًا، فقد وجه عنايته إلى الأشكال المختلفة للشلل والفالج النصفي، وشلل الوجه "اللقوة"، واهتدى إلى التمييز بين نوعي "اللقوة" المركزي والموضعي، وشرح بإسهاب التشخيص التمييزي بينهما، وقد خالف القدماء الذين ينكرون وجود الأورام بالمخ والعظام، فقال: إن المخ والعظام قد تكون مقرًا للأورام، وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف، وهي طريقة أعاد إدخالها في العلاج الجراح الفرنسي ""كالو"" سنة ١٨٩٦ م.

ولابن سينا طرق شائقة في وصف الأمراض العقلية وعلاجها، وله

أكبر الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفسي، وكان جالينوس[1] الطبيب اليوناني يقول: إن السكتة القلبية أو ضربة الدم أو النقطة يندر أن تكون سببًا لـ"البليثورا""، فخطَّأه في ذلك ابن سينا، وقال بعكسه، فقد رأى استنادًا إلى مشاهداته وتجاربه أن البليثورا من أكثر الأسباب لحدوث السكتة.

ومما وصل إليه ابن سينا ولم يسبقه أحد من الأطباء أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف، وأنها أكثر وقوعًا في هذين الفصلين.

وهو أول من تنبه إلى أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين، وقد درس الشيخ الرئيس أمراض الكبد، ووفق إلى طريقه فحصه ووصفه، كما وصف أعراض مرض اليرقان وصفًا يتفق مع الأوصاف الحديثة، وشرح السكتة الدماغية الناتجة عن احتقان الدم مخالفًا بذلك التعاليم اليونانية، وعندما تكلم عن أمراض المعدة أخذ يصف بدقة أعراض ضيق فتحة ""البواب"" والقرحة المعدية، وأفاض في شرح الإدمان على شرب الكحول، وأثر ذلك في الكبد، ثم علل الأسباب الفسيولوجية لتلافيف الأمعاء، وأفاض في الحديث عن استطالة عنق الرحم، وعن أورام الرحم وسقوطه، وصلابته، وعن خطر سرطان عنق الرحم.

ووصف ابن سينا أعراض حصى المثانة وصفًا دقيقًا واضحًا، لا يقل

[1] جالينوس: طبيب طبيعي مشهور من أكبر أطباء اليونان وحكمائهم، كان يعيش في سنة ٢٠٠ م. ترجمت حكمته إلى اللغة العربية، وكانت آراؤه موضع دراسة في مدرسة نصيبين، وفي معهد الحكمة بجديسابور.

عما يذهب إليه الطب الحديث في هذا العصر، وقد ميَّز بين حصاة المثانة وحصاة الكلية، ولذلك يقول: ""إن البول في حصاة المثانة إلى بياض ورسوب، ليس بأحمر، بل إلى بياض أو رمادية، وربما كان بولًا غليظًا زيتي الثقل، وأكثره يكون رقيقًا، وخصوصًا في الابتداء، ولا يكون إيجاع حصاة المثانة كإيجاع حصاة الكلية، لأن المثانة مخلاة في فضاء، إلا عند حبس الحصاة للبول، فإن وجعه يشتد عند وقوعها في المجرى، والخشونة في حصاة المثانة أكثر، لأنها في فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها، ولذلك هي أعظم، لأن مكانها أوسع، وقد يتفق أن يكون في مثانة واحدة حصيتان أو أكثر من ذلك، فيتساجح ويكثر تفتيت الرملية، وقد يكون مع الرملية بخالى، لانجراد سطحها عن الحصاة الخشنة، وربما بال في آخره بلا إرادة، وكلما فرغ من بول يبوله اشتهى أن يبول في الحال، والقاضي لذلك هي الحصاة المستدفعة استدفاع البول المجتمع. وكثيرًا ما يبول الدم لخدش الحصاء، خصوصًا إذا كانت خدشة كبيرة. وكثيرًا ما تحبس، فإذا استلقى المحصور وأشيل ورکاه وهر زالت الحصاة عن المجرى، وإذا غمز حين إذ في العانة انزرق البول، وهذا دليل قوي على الحصاة. والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة، لأنها تنشف في المجرى، وأما الكبيرة فقد تزول عن المجرى بسرعة، وأعلم أن حصاة المثانة تكثر في البلاد الشمالية وخصوصًا في الصبيان[١]"".

[١] القانون ج ٢ ص ,٥٠٩

كما وصف طريقة علاج البواشير بالشق وله في علم الديدان كشوف جديدة، فهو أول من وصف الدودة المعروفة باسم الفرتيت، وكان يعالج الكتف المخلوعة بالضغط المباشر، وتجاربه وأوصافه لعلم التشريح أتم وأكمل من أوصاف جالينوس، وكان ذا معرفة تامة بتشريح "القزحية" وإنسان العين، والقناة الدمعية، وهو أول من كشف اندغام عضلات العين، ولقد أدخل ابن سينا في علم العقاقير "الاقربازين" عددًا كبيرًا من الأدوية النافعة، والعقاقير الطبية المفيدة، التي لم تكن مستعملة من قبل. ومن أقطع الأدلة على اجتهاد ابن سينا ودقة ملاحظته في الطب؛ ابتكاره ما يشبه كيس الثلج في عصرنا، فقد ""صرع يومًا، فتصور أن مادة تريد النزول إلى حجاب الرأس، وأنه لا مأمن من ورم يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثير، ودقة ولفه في خرقة وتغطية رأسه بها، ففعل ذلك، حتى قوي الموضع، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي[١]"".

ولقد كان لابن سينا الفضل العظيم في كشفين هامين في عالم الطب، فهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد، وأول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية، ولو لم يكن لابن سينا غير هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرًا واعترافًا بفضله على الإنسانية. ولو وازنا بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج وطرق الفحص عن المرض داخل البلاد العربية، وبين ما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد، لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية في ذلك العهد وبين

[١] المقدمة (طبعة باريس) ج ٣ ص ١١٧.

غيرها من الأمم المجاورة، التي كانت تعيش على الخرافات والأوهام، فقد كان المريض في تلك البلاد التي يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة ثم ينهال عليه الطبيب ومساعدوه بالضرب حتى يخرج الشيطان من جسمه وهو المرض في زعمهم.

لا جرم أن ابن سينا الطبيب كان أعظم حظًا من الشهرة من ابن سينا الفليسوف، ولكن بعض الباحثين يذهبون إلى أن الفلسفة كانت ميدان انتصاره الخالد، فقد حلت كتبه الفلسفية محل كتب أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة، قال ابن خلدون: ""وتجد الماهر منهم عاكفًا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة"".

كتاب الشفاء:

يعد هذا الكتاب موسوعة كبيرة في الفلسفة، قسم فيه ابن سينا العلوم ثلاثة أقسام:

١- العلوم التي ليس لها علاقة بالمادة وهي علوم ما وراء الطبيعة.

٢- العلوم التي لها علاقة بالمادة وهي الطبيعيات.

٣- العلوم الوسط: وهي التي تتصل تارة بما وراء الطبيعة، وتارة بالمادة، وهي الرياضيات. وقد وجه الفليسوف عنايته في هذا الكتاب إلى النفس، فسماه "الشفاء"، وهو يقصد شفاء النفس. ولقد كان البحث في النفس ونشأتها وأحوالها وعجائبها وخوارقها محور فلسفة الشيخ الرئيس. وقد شرح هذا الكتاب أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب

التيجاني صاحب "تحفة العروس ونزهة النفوس" واختصره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسر وشاهي التبريزي[1]المتوفى ٦٥٢هـ.

والكتاب ضخم يقع في سبعة عشر مجلدًا، وقد تحول اسمه تحولًا غريبًا في أفواه العلماء من رجال القرون الوسطى بأوروبا، فسمى عندهم **Sutflcientia**، ويقال إن ابن سينا اختصره في "النجاة" وإن لم يكن النجاة مختصرًا بالمعنى الكامل للشفاء، فقد تناول بحوثًا وردت فيه، ولكنها على نظام مختلف، وكتاب الشفاء عرض دقيق للآراء اليونانية مع التعليق عليها وشرحها وبيانها، وقد ألف ابن سينا هذا الكتاب في وقت مبكر في أثناء إقامته في بلاط جرجان والري وهمذان وأصبهان، وأتمه سنة ٤١٨ هـ، أما كتاب "النجاة" وهو مختصر الشفاء تقريبًا، فقد وضعه في هذا العام نفسه، وهو في طريقه إلى الحرب مع علاء الدولة.

عرض لبعض آراء ابن سينا الفلسفية:

جمع ابن سينا بين الطب والفلسفة، وكان يرى أن المبادئ الأولى التي يقوم عليها الطب يجب أن تُستعار من الفلسفة، والفلسفة عنده تنقسم إلى المنطق والطبيعة والإلهيات.

ويقول: ""إن الوجود إما عقلي مفارق وهو موضوع ما بعد الطبيعة، وإما مادي محسوس وهو موضوع الطبيعة، وإما ذهني متصور وهو

[1] (تبريز) من بلاد أذربيجان، فتحها نعيم بن مقرن المزني في خلافة عمر بن الخطاب، توفي فيها ناصر الدين البيضاوي صاحب التفسير سنة ٦٨٥ هـ. وإليها ينسب أبو بكر زكريا التبريزي إمام اللغة والأدب المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.

موضوع المنطق، وهو موضوع الطبيعة، وإما ذهني متصور وهو موضوع المنطق، وموضوع الطبيعة لا يوجد ولا يمكن أن يتصور وجوده بريئًا عن المادة، أما موضوع ما بعد الطبيعة فلا تخالفه المادة أصلًا، وموضوع المنطق منتزع من المادة بطريق التجريد"". ومن آرائه في النفس والإلهيات: أنه يرتب النفوس ترتيبًا تصاعديًا، فيتحدث أولًا عن النفس النباتية، ثم الحيوانية ثم الناطقة، وهو يدرس النفس الناطقة من جهات مختلفة، ويأخذ عن أرسطو تعريفه المشهور للنفس وهو: ""إن النفس كمال أول لجسم طبيعي أزلي ذي حياة بالقوة"". ويعني بإقامة البراهين على قيامها مستقلة عن البدن، ومن أطرف هذه البراهين برهان الرجل الطائر الذي يذكره في كتاب "الشفاء"، والذي يقول فيه: إنه لو توهم أحدنا كأنه خلق دفعة وكاملًا، وخلق يهوى في الهواء، بحيث لايصدمه أى شيء من خارج، فإنه مع ذلك يثبت ذاته، فالنفس موجودة وجودًا غير بدني، وليس للنفس وجود سابق على وجود البدن كما زعم أفلاطون ولكنها حادثة مع حدوث البدن، وهذا لا يمنع خلودها أي بقاءها بعد فناء هذا الإنسان بالموت.

والعقل أول ما يمتاز به الإنسان، وبعضه مكتسب، ويسمي ابن سينا العقل الفطري الطبيعي الذي يشترك فيه جميع الناس ""العقل الهيولاني""، وهو الاعتقاد في الأوليات، مثل الكل أعظم من الجزء، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية، وهذه هي المعقولات الأولى التي يتوصل بها المرء إلى اكتساب المعقولات الثانية، وهي التي تسمى عقلًا بالملكة، فإذا

أضاف المرء إلى ذلك معقولات مستفادة من الخارج، سُمي عقلًا مستفادًا، والعقل هو الذي ينتزع الكليات، فيجرد معانيها عن الجزئيات التي يشاهدها بالحواس، وهو الذي يحصل المقدمات التجريبية الحاصلة من الحس، ولعل هذا تفسير لما قاله في العينية في تعليل سبب اتصال النفس بالبدن: ""لتكون عالمة بما لم تعلم"".

ومن إلهياته البحث في الوجود المطلق، ولذلك يبدأ في تحديد صلة الوجود بماهيات الأشياء، فيرى أن هناك من الأشياء ما لا يؤخذ في حده معنى الوجود، كالمثلث مثلًا، فإنا نتمثله خطًا وسطحًا ولا نتمثله موجودًا، فمثل هذا الشيء وجوده زائد على ماهيته عارض عليها، وهو يحتاج في وجوده إلى علة، ولما كانت العلل لا يمكن أن تتداعى إلى غير نهاية لامتناع الدور والتسلسل، فلا بد من الانتهاء إلى علة أولى بالإطلاق، ماهيتها عين وجودها، وهذه العلة لا نستطيع أن نتمثلها معدومة؛ لأن ماهيتها الوجود نفسه، ولأنها مبدأ كل موجود، وقد أدى التمييز بين ماهية الشيء ووجوده إلى التمييز بين الممكن والواجب، فالممكن ما يستوي وجوده وعدمه، والواجب هو الضروري للوجود الذي يترتب على عدمه كل موجود، ويقابلهما العالم والله على الترتيب.

وابن سينا يوجه عناية خاصة في فلسفته إلى النفس، فمذهبه في الإنسان اثنيني، وهو يقول: إن الإنسان مركب من جسد ونفس، وليس بين الجسد والنفس اتصال في الجواهر، وكما أن الأجسام كلها توجد من امتزاج العناصر بفعل الكواكب، فالجسم الإنساني ينشأ على هذا النحو

أيضًا، ولكنه ينشأ من أحسن الأمزجة اعتدالًا، وإذن فيمكن أن تنشأ الأجسام نشوءًا طبيعيًا. ويمكن أيضًا وجود نوع الإنسان وفناؤه على هذا النحو الطبيعي، أما النفس فلا تنشأ من امتزاج العناصر، وهي ليست صورة لازمة للجسد، ولكنها عارضة له، ولكل جسد نفس خاصة لا تصلح إلا له، وهي تفيض عليه من واهب الصور، وهو العقل الفعال، وكل نفس من أول أمرها[1] جوهر جزئي مستقل، ولا يزال هذا الاستقلال يتزايد مدة بقائها في الجسد؛ وهذا مما يتنافى مع المبدا القائل: بأن المادة هي الأكثر في الجزئيات. وابن سينا يكبر النفس، ويقص علينا الكثير من قواها العجيبة، وما يمكن أن يصدر عنها من أفعال وهي تعرج إلى العالم الأعلى مجتازة مراتب الموجودات المتفاوتة، وقد ضمن قصيدته العينية بعض هذه الآراء، ويذهب المرحوم الدكتور أحمد أمين في رأي جديد له إلى أن هذه القصيدة ليست لابن سينا، وإنما هي أشبه ما تكون بشعر ابن الشبل البغدادي صاحب القصيدة:

بربـــك أيهـــا الفلـــك المـــدار   أقصـــد ذا المســـير أم اضـــطرار

بحجة أن الشيخ الرئيس عرف بغموض اللفظ وسماعة التعبير، وليست العينية كذلك، ولكن ابن أبي أصبيعة يحدثنا في طبقاته، فيقول: إن أبا منصور الجبائي تعرض لابن سينا قائلًا له: ""إنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي حكـم فيها""، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب

١ كتاب النجاة — ٢٤٩، ٢٥٦، ,٢٥٧

"تهذيب اللغة" من خراسان من تصنيف أبي منصور الزهري، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها، وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظًا غريبة في اللغة، وكتب ثلاثة أحدها على طريقة ابن العميد، والآخر على طريقة الصابي، والثالث على طريقة الصاحب، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها، ثم أوعز للأمير، فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي، وقال: ""إنا ظفرنا بهذه المجلة في الصحراء في وقت الصيد، فيجب أن نتفقدها، وتقول لنا ما فيها""، فنظر فيها أبو منصور، وأشكل عليه كثير مما فيها، فقال له الشيخ: ""إن ما تجهله من هذا الكتاب مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة""، وذكر له كثيرا من الكتب المعروفة فيها، كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها.

وهذه الرواية توضح لنا بجلاء أن ابن سينا كان رجلًا عبقريًا لا يعجزه شيء، وأنه كان ذا عقلية جبارة يستطيع أن يملك بها ناصية الخيال والحقيقة، وينصرف بها في كل ألوان التعبير، وإذن لابد أن تكون العينية ثمرة من رأت قريحته، ونفثة من نفثاته الصوفية، رمز بها إلى آرائه في النفس، والقصيدة تدور حول حالة النفس قبل اتصالها بالبدن، وبعد اتصالها، وبعد مفارقتها له، يقول الشيخ الرئيس والشاعر الفليسوف:

هبطت غليك من المحل الرفع ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهي إلى سفرت ولم تتبرقع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع
تبكي إذا ذكرت عهودًا بالحمى بمدامع تهمي ولم تتقطع
وتظل ساجعة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
هجت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأي شيء اهبطت من شامخ عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله الحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية في العالمين وخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها فكانا غربت بعين المطلع
فكأنها برق تألق الحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

يقول الشيخ الرئيس في هذه القصيدة التي ضمنها آراءه في النفس: إن النفس قد هبطت من عالم العقول المجردة، الذي تفيض منه النفوس على البدان إلى الحضيض الأوضع وهو الجسد، والنفس حقيقة عقلية لا تُدرك بالحس، ولكنها تُدرك بالعقل، وقد هبطت من عالمها مكرهة، وبعد أن اتصلت بالجسد وألفته عز عليها أن تفارقه، ولكنها حين هبطت الى الجسم أول الأمر أعرضت عن الجسد احتقارًا له، غير أنها ما لبثت أن ألفته، وعندئذ نسيت المكان الذي هبطت منه، وهو العالم العلوي، وأقامت بالعالم السفلي، واتصلت بالمادة الجسمانية، وتوزعت بين أجزاء الجسد، بيد أنها حين تذكر ماضيها في عالم الروحانيات تأخذ

في البكاء أسفًا وحسرة، والنفس حين تبكي هذا الماضي تبكي أيضًا على الفاني حينما تفارقه، والنفس حينما حلت بالجسد حالت بينها الشهوات الحيوانية والرغبات الجسمانية وبين الاتصال الدائم بعالم العقول الذي هبطت منه، حتى إذا حان الرحيل بمغادرة الجسد وتركه، عادت إلى ما كانت عليه وقت الهبوط، وأدركت بعد مفارقة الجسد من الحقائق مالا يُدرك ويُرى بالعين المجردة، والنفس حين يتم لها ذلك ترتاح كل الارتياح، ثم يتساءل الشيخ الرئيس عن الباعث على هبوط النفس من عالم العقول إلى الجسد، وهل كان ذلك لحكمة لا يدركها العقلاء؟

وهو يجب عن هذا التساؤل، فيقرر أن هبوطها كان أمرًا لازمًا أوجبه الحاكم القاهر، لكي تدرك النفس ما لم تكن تدرك من عظمة الخالق العظيم إذا ظلت في عالمها الأول، يقول الله تعالى: ""وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون""، ثم ترجع وهي عالمة بالأسرار الخفية في عالم الغيب والشهادة، وقد كانت قبل ذلك تعلم عالم الغيب فقط، والنفس في سيرتها هذه كأنها برق خاطف تألق حتى كأنه لم يلمع.

والخلاصة أن الشيخ الرئيس يصف اتصال النفس بالجسم كارهة، ودخولها في البدن كارهة، وخروجها منه كارهة، ولذلك نراه يسأل: لم كان هذا الدخول وهذا الخروج؟ ويجيب عن هذا بأن دخولها كان سببًا في علمها مالم تعلم، من العالم الأرضي بعد العالم السماوي، ولكي تُكوِّن رأيًا صحيحًا عن معنى الكمال، ولكن الشيخ الرئيس على الرغم من هذا لم يزل في حيرة من أمر النفس، ولم يصل إلى شيء يطمئن إليه،

ولم يأت بعده الفلاسفة إلى اليوم من استطاعوا أن يصححوا هذه المعلومات عن النفس أو أن يخطئوها.

ابن سينا والتحليل النفسي:

يذهب النفسيون إلى أن الغرض من التحليل النفسي هو الوصول إلى ما يتكون منه العقل الباطن، ثم العمل على إخراج هذه المكونات إلى العقل الظاهر، والحكمة في ذلك تخفيف الضغط على النفس، وبذلك يتخلص المريض من أمراضه العقلية. وقد استُخدم التحليل النفسي في هذا العصر في الأغراض الطبية، ويذهب فرويد إلى أن العقل الباطن يتكون من مجموعة من الرغبات الشخصية المكبوتة المودعة في أعماق النفس منذ الطفولة، ومن ذكريات ماضية أُرغمت على الانتقال من الناحية الشعورية إلى الناحية اللاشعورية فلم تجد مأوى إلا حظيرة العقل الباطن، وسبب ذلك أن هذه الرغبات المكبوتة وتلك الذكريات لا تلائم الحياة الاجتماعية، ولا تتفق مع آداب المجتمع، ولم يكن التحليل النفسي.

ومما يروى عنه في هذا الصدد أن رجلًا أصيب بـ"المناخوليا"، وقد استبد به المرض إلى درجة أنه أصبح يعتقد أنه صار بقرة، وقد امتنع عن الطعام والشراب مع بني الإنسان، ومن أجل ذلك أخذ الرجل يقلد الأبقار، فيخور مثلها، ويذهب إلى حظائرها، ويتناول الأكل معها، واستمر الرجل على هذا النحو زمنًا، حتى ضعفت قواه، وهزل جسمه، وشحب لونه، فعرضه ذووه على الأطباء ولكنهم عجزوا عن علاجه، وكان ابن سينا في ذلك الوقت قد طار صيته الآفاق، وعرف بتطبيب مرضى العقول، فلما

عرض عليه هذا الرجل، وفحص عن حاله، قال له: ""ما بالك أيها الرجل؟ وما الذي حل بك ؟""، فقال المريض: ""ليس بي شيء إلا أنني أصبحت بقرة تخور، آكل ما تأكل، وافعل ما تفعل""، فقال ابن سينا: ""إذا كنت حقًا كذلك، وأنت بقرة بالفعل، فإني سأذبحك""، فقال المريض: ""افعل ما تشاء""، فأمر ابن سينا بتقييد المريض بحبل متين، وألقاه على الأرض، وإحضار سكين حاد، ثم تقدم إليه وأراد أن يهوى بالسكين على رقبته، ولكنه عندما قرب السكين من نحره، قال: ""ما بال هذه البقرة هزيلة؟ إنها لا تصلح للذبح""، فقال المريض: ""لا إنها تصلح للذبح، فاذبح""، قال: ""كلا لن أذبحها حتى تمتلئ شحمًا ولحمًا""، فقال المريض: ""وماذا أفعل حتى أصير كذلك؟""، قال ابن سينا: ""تأكل كثيرًا وتشرب كما يأكل الناس ويشربون""، فقال: ""أو تذبحني بعد ذلك؟""، قال: ""نعم""، فأخذ الرجل على نفسه عهدًا وميثاقًا ليفعلن ذلك، وأخذ يأكل ويشرب كما يفعل الناس، فعادت إليه صحته، وقوى جسمه، وبذلك ارتد إليه عقله، وزايله المرض، وشفي تماما. ثم زار ابن سينا هذا المريض بعد شفائه، فلما رآه سليم الجسم والعقل، قال له مداعبًا: ""ما بال هذه البقرة قد سممت؟""، قال: ""نعم وقد أصبحت عاقلة"".

ومما يروى أيضًا أن مريضًا من الأمراء عُرض عليه، بعد أن أعيا الأطباء أمره، فلما رآه وتحدث إليه في مرضه، تبين للشيخ الرئيس أن الأمير مريض بالحب، ولكن المريض لم يرض أن يبوح لطبيبه باسم محبوبته، ولما عرف ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة اسم

من يحبها، كي يزيل ما بينه وبينها من وجدانات وعواطف كامنة في نفسه، قد ارتبطت بتلك المحبوبة، صمم على معرفة اسمها ومن تكون هي بأي طريقة، وقد تجلت عبقرية ذلك الطبيب النفسي، فأمر بإحضار أكبر رجال مدينة الأمير سنًا، ثم أخذ يناقشه إلى أن وصل إلى معرفة اسم الفتاة التي يحبها الأمير، وكان يخفي اسمها، وفي أثناء هذه المحاورة مع الرجل المسن كان الشيخ الرئيس قابضًا على ذراع المريض متتبعًا نبضه، وكان نبض المريض يشتد كلما اقترب ابن سينا من التعرف على الفتاة، وحينما عرف الاسم ازداد نبض المريض بسرعة، وقد تبين من ذلك أن الفتاة التي كان يحبها الأمير، هي ابنة عمة، وأخيرًا عمل أهله على أن تزف إليه، وبذلك شفي الأمير.

إن في هاتين الروايتين ما يدل على معرفة ابن سينا بالتحليل النفسي، ولا غرابة في ذلك، فالشيخ الرئيس كان مولعًا بالفلسفة النفسية، وهو صاحب العينية المشهورة التي أشرنا إليها سابقًا، وهو صاحب رسالة "القوى النفسانية" التي نشرتها دار المعارف في مطلع هذا القرن، كما أن له رسالة أخرى صنفها عن النفس الناطقة، وقد نشرتها دار المعارف أيضًا في هذه الأيام بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي لوفاته، وهي منقولة عن النسخة المخطوطة بمكتبة ليدن تحت رقم ١٦٤٨، ولهذه الرسالة صورة بالمعهد الفرنسي بالقاهرة، وقد نشرتها دار المعارف بمجلة الكتاب.

أثر الفلفة السينوية في العصور الوسطى:

كان ابن سينا صاحب الفضل الكبير في شرح فلسفة أرسطو، وكان

تلميذًا مخلصًا للمعلم الأول، وإن استقل عنه في فلسفته، كما كان متأثرًا بالأفلاطونية الحديثة، فكانت دراساته وشروحه وتعليقاته هي أول نظرة جامعة فلسفية، تسربت إلى أوروبا في العصور الوسطى من خلال كتبه، التي منها كتاب "الشفاء"، وكتاب "القانون"، وكتاب "النفس"، و"رسائل السماء والحيوان"، وكتبه في المنطق والعلوم الطبيعية، وم يكن أرسطو مفهومًا لدى الأوروبيين فهمًا صحيحًا قائمًا على أساس علمي دقيق، حتى جاء ابن سينا فألقى ضوءًا ساطعًا على فلسفة المعلم الأول، فكان لهذا أعظم الأثر في بعث الحياة في الذهن الأوروبي.

وإذا أخذنا عدد المفكرين في القرون الوسطى، فإننا لن نجد مفكرًا واحدًا لم يتأثر بالفلسفة السينوية، فقد كان واحد من هؤلاء المفكرين يغترف بحرية تامة من فلسفة ابن سينا، لذلك كان من أساتذة الفلاسفة في هذه العصور، ومن أدلة تأثير الفلسفة السينوية ما ذكره القديس توماس الاكوينى في تعريف الحقيقة، فهو مأخوذ من قول ابن سينا: ""حقيقة كل شيء هي وجوده المكتسب""، كما استعار الأوروبيون منه نظريات الوجود والمعرفة، وكانت تدرس بالجامعات الأوروبية، وبخاصة جامعة "مونبلييه" بجنوب فرنسا إلى القرن الثامن عشر، وديكارت وهو صاحب قضية إثبات الوجود التي يقول فيها: ""أنا أفكر فأنا موجود"" قد استعار قضيته هذه من قضية الإنسان المعلق في الفضاء، وهي لابن سينا، وقد ذكرها الشيخ الرئيس حين تصدى لإثبات "الآنية"، وهي وجود النفس بمعزل عن الموجودات الخارجية، فقد قال: ""إننا لو علقنا إنسانًا في الفضاء، لا

يتصل عضو منه ببعضه، ولا تقع حاسة له على موجود، لشعر بآنيته أي لشعر بذاته، أما مسألة الموجودات وحاجتها بعد وجودها إلى النعمة الإلهية لدوام قوة الوجود فيها، فهي لا تكسب الإيجاد مرة واحدة، بل تكسبه على التجدد بنعمة فياضة من الله تعالى""، وفي هذا دليل على أن إمام الفلسفة الحديثة قد تأثر بالفلسفة السينوية تأثرًا لا شك فيه.

ذلك ابن سينا الفليسوف والطبيب والمربى والعالم النفسي، نسوق ترجمته المختصرة إلى شباب مصر الفتية العربية الناهضة، كى يتفقوا على أمجاد عظمائهم، وتستنير بصائرهم بما تركوه من المراجع والعلم والفلسفة، حتى يشيدوا حاضرًا جديدًا مستمدًا من وحي ذلك الماضي التليد.

المراجع:

"١ " "تاريخ الفلسفة في الإسلام" لدي بور.

" ٢ " "فلسفة ابن سينا وأثرها في أوروبا خلال العصور الوسطى" تأليف "ا. م. جواشون".

" ٣ " "تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن"، لحنا خباز.

" ٤ " "طبقات الأطباء" لابن أبي أصبيعة.

" ٥ " "أحكام العلماء بأخبار الحكماء" ببقفطى.

" ٦ " "وفيات العيان لابن خلكان" الجزء الخامس – طبعة دار المأمون.

" ٧ " "ابن سينا"، بحث للدكتور زكي علي.

" ٨ " "الرئيس ابن سينا"، بحث لمحمد فرحات.

" ٩ " "نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية" لقدري حافظ طوقان.

" ١٠ " "مبادئ الفلسفة"، ترجمة أحمد أمين.

" ١١ " "تاريخ الأدب في الأندلس" للسكندري.

" ١٢ " "أثر العرب في الحضارة الأوروبية" للعقاد.

" ١٣ " دائرة المعارف الإسلامية.

" ١٤ " دائرة معارف البستاني.

" ١٥ " "إعجام الأعلام" للمرحوم محمود مصطفي.

" ١٦ " "الفهرست" لأمين واصف بك.

" ١٧ " مجلة الثقافة "العدد الخاص بابن سينا" ومجلة الكتاب "العدد الخاص بابن سينا".

ياقوت الحموي
الأديب الرحالة الجغرافي

حياته ونشأته وثقافته:

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس ونسبته إلى حماة، وإن كان بغدادي الدار. ولد سنة ٥٧٥ هـ، وقيل سنة ٥٧٤ هـ ببلاد الروم، ولكنه أُسِر وهو صغير من بلده، فقفيل الرومي، ثم اشتراه تاجر في بغداد يعرف بعكسر بن أبي نصر الحموي، فنسب إليه، ولذلك عرف بياقوت الحموي[٧]، وكان مولاه عسكر لا يحسن القراءة والكتابة، فكان في حاجة إلى قارئ حاسب، يقوم على عمله ويضبط حسابه، فلما ابتاع ياقوتًا عهد به إلى من يعلمه، وقيل أرسله إلى الكتاب لتعلم الخط والحساب.

وقد نشأ ياقوت نشأة إسلامية، فأتقن القراءة والكتابة، وتعلم طرفًا من اللغة والإعراب والحساب، فكان ذلك بمثابة البذرة الصالحة في فطرة ياقوت المخصبة، وبعد أن كبر استخدمه بين البلاد، فأخذ ياقوت

---

[١] الحموي: نسبة إلى حماة، وهي مدينة بالشام على نهر العاصي، فتحها خالد بن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح سنة ١٤ هـ، واسمها القديم إفامية **Eplphanie** ، وفيها ولد أبو عبد الله المعروف بياقوت الحموي المتوفى ببغداد سنة ٦٢٦ هـ، وصاحب معجم البلدان، وهو من أمهات كتب الجغرافيا وأدقها وأوفاها. وكانت مكان إقامة الملك المؤيد أبي الفداء المؤرخ الجغرافي الجليل، المولود بدمشق سنة ٧٣٢ هـ. وهي وطن ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ. وكان إمام عصره في الأدب.

يتردد كثيرًا بين عمان [١] والشام، وكان مولاه يشغله بالأسفار الكثيرة، فأفاد ياقوت من تلك الأسفار شيئًا كثيرًا، وكان إلى جانب ما تقتضيه أعمال التجارة من مقابلة الحرفاء والمساومة معهم، وما يبذل في ذلك من وقت وجهد، كان لا ينفك يطلع على ما في دكاكين الوراقين، ويقتني الكتب ويجمعها، وينسخ بعضها الآخر. ثم وقعت بينه وبين مولاه قطيعة، انتهت بأن أعتقه في سنة ٥٩٦ هـ، وعندئذ عكف ياقوت على الاشتغال بنسخ الكتب، لقاء أجر يتقاضاه في سبيل ذلك، ولكن عسكر الحموي لم يلبث أن استعاد ياقوتًا إلى خدمته، وأعطاه مالًا وتجارة، وأمره بالسفر، وحين عاد ياقوت من سفره وجد أن سيده قد مات، فأعطى زوجه وأولاده من المال ما أرضاهم به، ثم احتجز بقيته معه، وجعلها رأس ماله، واتخذ تجارة الكتب حرفة له.

وكانت الوراقة مدرسة جليلة، ومعهدًا فياضًا بالعلم الغزير، تثقف منها ياقوت شيئًا كثيرًا من العلوم والفنون والتاريخ والجغرافيا، ثم أخذ يطوف بالشام والعراق[١٨] والجزيرة[٢] وخراسان[٣]، واستوطن "مرو[٤]" وسافر

---

[١] عمان: بتشديد الميم وفتح العين اسم بلدة بأطراف الشام، كانت قصبة أرض البلقاء شمال الحجاز، وينسب إليها أبو عبد الله محمد بن عيسى العماني، كان من أهل الأدب، وأخذ عن أبى إسحق الزجاج، وروى عنه كتاب فعلت وأفعلت وبضم العين وميم مفتوحة غير مشددة. بلاد واسعة واقعة في الجنوب الشرقي من بلاد العرب، على ساحل بحر اليمن والهند وحاضرتها مسقط.

[١] العراق: قطر عظيم بين بلاد الجبال وخورستان من شرق، وبلاد العرب وبحر فارس من جنوب وغرب، وأرض الجزيرة من شمال، وأشهر مدنه بغداد وسامرا والأنبار وجلولا والنهروان

إلى خوارزم[5] وغيرها، وقد تحدث عن نفسه فقال: ""لقد جبت البلاد ما بين جيحون والنيل"". وأقام مدة عند الصاحب الأكرم القنطي وزير حلب [6]، وأهدى إليه كتابه معجم البلدان.

وكان ياقوت في أسفاره يتصل بالعلماء والأدباء في البلاد التي يمر بها، أو يرسو بسفنه عليها، فيتلقى عنهم، وكان يتقن ويعي كل شيء، حتى

وواسط والبصرة والكوفة والحيرة وكربلاء. وكان هذا القطر يسمى قديمًا بلاد بابل **Babylonie**، أما مدينة بابل فهي الآن أطلال دارسة ومحلها أو بالقرب منها بلدة الحلة.

[2] الجزيرة أو ما بين النهرين **Mesopotamie** وهي ديار ربيعة ومضر الواقعة بين نهري دجلة والفرات من منبعهما إلى الأنبار أي إلى حدود العراق، وأشهر مدنها دجلة والفرات من منبعهما إلى الأنبار، أي إلى حدود العراق وأشهر مدنها الموصل وتكريت والرها ونصيبين والرقة.

[3] خراسان: إقليم من أكبر الأقاليم الفارسية، فتحه الأحنف بن قيس في خلافة عمرو بن الخطاب رضى الله عنه.

[4] مرو: أو مروا لشاهجان أو شاه جهان. قاعدة بلاد خرسان على نهر مر غاب، ومتى ذُكرت مرو يراد بها مرو الشاهجان. فتحها الأحنف بن قيس، وفيهما بويع بالخلافة عبد الله المأمون سنة ١٩٨ هـ. والنسبة إليها مروزي على غير قياس.

[5] خوارزم: هي بلاد (خانة خيوة) الآن إلى بحيرة آرال التي سميت عند العرب بحر خوارزم، وأشهر مدنها الجرجانية (الجرجان الأقصى) وخيوق. ومن قرى الجرجانية زمخشر وفيها ولد جار الله الزمخشري إمام عصره في اللغة والتفسير والحديث المتوفى سنة ٥٣٨ هـ.

[6] حلب: **Alep – Aleppo** وقد سماها الصليبيون **Beree** وعربت باروا، وهي مدينة كبيرة ببلاد الشام شمالًا، فتحها أبو عبيدة وخالد بن الوليد، وكانت قاعدة الدولة المرداسية (٤١٤ – ٤٧٣) وتوفي فيها في سنة ٧٤٠.

علاء الدين الخازن صاحب كتاب لباب التأويل في معاني التنزيل، وفيها مشهد إبراهيم الخليل، وقيل إنه مكان تعبده، وبناها قوم من العماليق، وكان فيها ابن سنان الخفاجي صاحب سر الفصاحة، وقد سبقت ترجمة الصاحب الكرم القفطي المصري.

طار ذكره في الآفاق، فكان أديبًا، ورحالة، وجغرافيًا مشهورًا، ثم تقلبت به الأيام، فحينًا كان يعيش في هناءة وسرور، وحينًا كان يعيش في هم وشقاء، فقد شهد حوادث التتر[١٩] في خراسان فوصف ما فعلوه بديار الإسلام من قتل وإحراق وتخريب، ففر أمامهم خوفًا على حياته، وفقد ثروته، وكان متعصبا على علي "كرم الله وجهه"، ويبدو أن السبب في ذلك راجع إلى أنه طالع كتب الخوارج[١]، وتأثر بما فيه، فكان يصوب رأيهم فيما ذهبوا إليه.

---

[١] التتر: وتكتب تتار، اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور، وقد ورد في الكتابات الأرخونية التركية، التي يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الميلادي، ذكر طائفتين من القبائل التترية، هما التتر الثلاثون، والتتر التسع، ويذهب تومسون **Thomsen** إلى أن اسم تتر كان يطلق في ذلك العهد على المغول أو فريق منهم، وليس على الشعب التركي، ويقول: إن هؤلاء التتر كانوا يعيشون على وجه التقريب في الجوانب الغربية من بحيرة بيكال، وجاء في كتاب أخبار العالم ولا يعرف مؤلفه أن التتر من (التغزغز) وقيل إنهم من الكمك، الذين يقطنون حوض نهر أريسن، وأطلق ابن الأثير في كتابه طبعة توربنرج ح ٢/ ص ١٧٨ وما بعدها هذا الاسم على أسلاف (جنكيز خان)، ويظهر أن الشعوب التي انحدرت من أصل مغولي، وتتحدث بالمغولية، كانت تسمى نفسها دائمًا باسم التتر وقد حل هذا الاسم بعد عهد جينكز خان، ويقال إن جينكز خان استعمل هذا الاسم رسميًا.

[١] الخوارج: هم جماعة من المسلمين، كانوا أول أمرهم من رجال علي يحاربون معه ضد معاوية في الشام، ولما نشأت بدعة التحكيم وافقوا عليها أول الأمر، ثم رجعوا فقالوا: لا حكم إلا لله، واعتزلزا عليًا ونزلوا حروراء بظاهر الكوفة، ثم أوقع بهم علي بالنهروان قرب المدائن سنة ٣٨ هـ؛ لأنهم كانوا يعبثون ويرتكبون المحارم، غير أنهم صاروا فيما بعد حزبًا سياسيًا ودينيًا له شأنه الخطير في التاريخ الإسلامي. ومن آرائهم أن الإمامة يجب ألا تقتصر على أسرة بعينها، وأن كل مسلم صالح لأن يلي الخلافة، متى كان متصفًا بالتقوى والشجاعة، وأن كل خليفة يسيء السيرة يجب عزله، فمبادئهم ديمقراطية، وهم من الناحية السياسية كانوا يرمون إلى إقامة حكومة جمهورية إسلامية، ومذهبهم الديني يقوم غالبًا على التعصب الشديد، والإسلام بظاهر القرآن، وإنهاك الجسم بالصلاة، والشدة على من ليس من

ولما قدم إلى دمشق[2] اتصل بنفر من أهلها في أحد أسواقها. فأخذ يناظر من يتعصب لعلي من الشيعة، وجرى بينه وبين الشيعة حديث حمل ياقوتًا على أن يذكر عليًا بما لا يرضي أصحابه، فسخطوا عليه، وثاروا به، وكادوا يقتلونه، لولا أنه أسرع إلى الفرار من دمشق قاصدًا حلب، ومنها إلى نيسابور[1].

مذهبهم من المسلمين. ومن فرق الخوارج الأزارقة وكانوا يقولون بتكفير المسلمين، وهم بخلاف الأباضية.

[2] دمشق Damascus واسمها بالمصري القديم دمسكو، وعند العرب دمشق، وهي حاضرة الشام من قديم، وهي على عدة أنهر، أشهرها نهر (بردي). فتحها أبو عبيدة عامر وخالد بن الوليد سنة ١٣ هـ /٦٣٥ م بعد واقعة اليرموك ثم صارت قاعدة الدولة الأموية، فكانت قبلة وجوه القبائل وشعرائها، وبنى فيها الوليد بن عبد الملك الجامع الأموي، وكان كعبة الطلاب والعلماء من جميع الآفاق، وفي وسطه قبر زكريا عليه السلام، وأصبحت دمشق موطن كثير من الشعراء والأدباء، منهم أبو أصيبعة صاحب (عيون الأنباء) المتوفى ٦٧٨ هـ وابن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ. ومحيي الدين بن عربي إمام الصوفيين المشهور والمتوفى سنة ٦٣٨ هـ، وابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ، وشمس الدين الذهبي الإمام =

=الحافظ صاحب المؤلفات الكثيرة المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، وابن عربشاه المؤرخ المعروف المتوفى سنة ٨٥٤ هـ، وابن الساعاتي الشاعر المتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ. وفيها قبر معاوية بن أبي سفيان، وصلاح الدين الأيوبي، ونور الدين محمود بن زنكي، وقبر محيي الدين بن عربي، وأبي نصر محمد الفارابي.

[1] نيسابور Nichapour حاضرة خراسان، واسمها أيضًا (نشاور)، وكانت قاعدة الدولة الطاهرية (٢٠٥ – ٣٥٩ هـ)، وهي بلد أبي الفضل أحمد ابن محمد النيسابوري. الملقب بالميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ صاحب كتاب (مجمع الأمثال)، وأبي منصور الثعالبي صاحب (فقه اللغة) وغيره، وأبي بكر الخوارزمي، إمام اللغة والأنساب، ومسلم القشيري إمام المحدثين صاحب كتاب (الجامع الكبير)، وعمر الخيام الرياضي الفلكي الشاعر المتوفى سنة ٥١٧ هـ. وهي أحسن مدن خراسان، وأجمعها للخيرات، وسميت نيسابور؛

ويقول الرواة إنه لما قدم نيسابور في سنة ٦١٣ هـ طاب له المقام فيها، فاشترى بها جارية تركية، لم ير أن الله قد خلق أحسن منها خَلقًا وخُلقًا، وقد ارتاح إليها، وصادفت من نفسه محلًا كريمًا، ومن قلبه شغفًا وحبًا، ثم أبطرته النعمة، فاحتج بضيق اليد وباعها، فامتنع عليه القرار، وجانب المشروب والمأكول، حتى أشرقت نفسه على البوار فأشار عليه بعض النصحاء باسترجاعها، فعمد إلى ذلك ولكنه أخفق، ولم يجد سبيلًا إلى تحقيق غايته؛ لأن الذي اشتراها كان غنيًا، وقد صادفت من قلبه أضعاف ما صادفت من قلب ياقوت، فأسف وندم، وكان لذلك تأثير قوي في نفسه.

وظل ياقوت يتنقل من بلد إلى آخر، إلى أن ألقى عصا الترحال في حلب، ومازال بها حتى وافاه الأجل المحتوم في سنة ٦٢٦ هـ.

٢- أسباب نبوغه في التأليف:

" ١ " كان ياقوت مولعًا بنسخ الكتب، فلما انقطع عن خدمة مولاه عسكر بن أبي نصر اتخذ الكتب حرفة له، وكان يتقاضى على نسخ الكتب أجرًا ساعده في اقتناء مكتبة عظيمة.

" ٢ " ولما مات مولاه كان ياقوت قد جمع رأس مال كبيرًا، فلما وجد تجارة الكتب أفاد منها علمًا غزيرًا، وثقافة واسعة عميقة، ومالًا كثيرًا.

لأن سابور أحد ملوك الفرس لما وصل إلى مكانها وجده مقصبة (مكان قصب)، فقال: هذا المكان يصلح أن يكون مدينة، وأمر بقطع القصب، والقصب بالفارسية (ني) فسميت نيسابور.

" ٣ " كثرة أسفاره ورحلاته التي أمضى فيها الشطر الأكبر من حياته مترددًا على بلدان كثيرة، وأقطار متعددة، فعاونه ذلك على الاطلاع على خزائن الكتب، ونسخ ما فيها، والإحاطة بكثير مما اشتملت عليه من بطون الأسفار في مختلف العلوم والفنون.

" ٤ " كان ياقوت يملك مجموعة كبيرة من الكتب القيمة النادرة في عصره، وكان مولعًا بالاطلاع عليها، والقراءة فيها، ومما يدل على أنه كان يقتني تلك المجموعة الكبيرة، أن ابن خلكان[١] ذكر في آخر ترجمته أنه وقف كتبه على مسجد الزيدي بدرب دينار بمدينة دار السلام "بغداد"، وسلمها إلى الشيخ عز الدين علي بن الأثير صاحب الكامل في التاريخ.

" ٥ " وكان ياقوت عالمًا غزير المادة، أشبه بمعلمة أو دائرة من دوائر المعارف، وفضلا عن ذلك، فقد كان كاتبًا جيد العبارة، خصب المعنى، غير أنه كان ككتاب عصره ينزع إلى السجع، ويميل إلى الحسنات، وذلك يتجلى في رسالته التي أوردها له ابن خلكان، وفي مقدمتي كتابيه الكبيرين "معجم البلدان"، و"معجم الأدباء"، كما كان شاعرًا مقلًا، له أشعار قليلة تدل على خيال لماح، وطبع أصيل، فمن ذلك قوله في غلام تركي، رمدت عينه، فوضع عليها رفائد سوداء:

---

[١] ابن خلكان: هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خلكان، ولد سنة ٦٠٨ هـ بمدينة أربل وهي بالعراق على الشاطي الشرقي من نهر دجلة بالقرب من الموصل، ونشأ في بيت كبير عريق الفضل ينتمي إلى أسرة البرامكة، وكان أبوه مدرسًا بمدرسة المظفر بأربل، فأخذ عنه مبادئ العلم، ثم تقلب في مناصب القضاء والتدريس بين الشام ومصر إلى أن توفي سنة ٦٨١هـ.

ومولـد للتـرك تحسـب وجهـه   بـدرا يضـيء سـناه بالاشـراق
أرخى على عينيه فضل وقاية   ليـرد فتنتهـا عـن العشـاق

٣- أثر ياقوت في الثقافة العربية:

لياقوت كتابان جليلان نال بهما شهرة واسعة، أحدهما "معجم البلدان"، والآخر "إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب"، أو "طبقات الأدباء"، وهو المعروف باسم معجم الأدباء:

"١" معجم البلدان وأسباب وضعه:

رتب ياقوت هذا المعجم الكبير على الحروف الهجائية، وجعل موضوعه الحديث عن أسماء البلدان والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال، والأوطان، والبحار، والأنهار، والغدران، والأصنام والأوثان، مضبوطة بالشكل، يقول: ""هذا كتاب في أسماء البلدان والأودية والقيعان، والقرى والمحال والأوطان، والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأبداد[١] والأوثان"".

وياقوت حريص كل الحرص على أن يذكر لنا الأسباب التي من أجلها وضع هذا الكتاب، ومن هذه الأسباب ما وقع فيه رواة الأخبار من أخطاء فاحشة، عند تعرضهم إلى ذكر الأماكن التي حصلت فيها الواقعات، وما من كتاب أُلف في هذا الفن إلا وأسماء البقاع فيه مهملة أو ومحرفة، وكم من عالم جليل أو خطير يُنسب إلى مكان مجهول، فإذا سئل عنه أهل المعرفة أجابوا بالنصف الأرذل من العلم، وهو قولهم: لا ندري.

---

[١] الأبداد: جمع بد، قال ابن دريد: هو الصنم الذي يعبد (فارس) وجمعه بددة وأبداد: بيت الصنم والتصاوير، وهو معرب.

ومن الذي يستغنى عن معرفة أسماء الأماكن، وتصحيحها، وضبط أصقاعها، وتنقيحها؟ ومن هذه الأماكن مواقيت الحج والزائرين، ومعالم الصحابة والتابعين، ومواطن الغزوات وفتوح الأمة، وما فُتح صلحًا وعنوة، وأمانًا وقوة، ولكل من ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفيء وأخذ الجزية، ثم يذكر ياقوت حاجة الأمراء ورواة الأخبار وأهل التطبيب إلى علم الجغرافيا، كما لا ينسى أن يبين حاجة أهل الأدب إليه، فيقول: إن عالمًا جليلًا كان يشرح مقامات الحريري، فقال "كرج" بلدة بين همذان[1] وأذربيجان[2]، وهذا خطأ شنيع يقلل من قيمة الشرح الأدبي، والصواب أنها بين همذان وأصفهان[3]، وإنه عندما كان بمجلس فخر الدين المظفر ""بمر والشاهجان"" سئل عن حباشة، وهي اسم لسوق من أسواق الجاهلية، فقال: ""حباشة بالضم""، فعارضه أحد المحدثين، وقال إنها تُنطق بفتح

---

[1] همذان: مدينة ببلاد الجبال من فارس، واسمها عند الآشوريين (هجماتانا) وعند اليونان (إكباتان) **Ecbtan**، وكانت قاعدة مملكة ميديا القديمة، وبها توفي الرئيس علي بن سينا سنة ٤٢٨ هـ، وهي وطن أبي الفضل بديع الزمان صاحب الرسائل والمقامات المتوفى سنة ٣٩٨ هـ، بمدينة هرأة، وطائفة من أهل الفضل والعلم.

[2] أذربيجان: أرض واسعة الأرجاء بين بلاد الجبال جنوبًا، وبلاد الكرد غربًا، والديلم، وبحر قزوين شرقًا، وأرمينية وموقان شمالًا، وأشهر مدنها أردبيل وتبريز، والنسبة إليها أذربي.

[3] أصفهان أو أصبهان: مدينة قديمة ببلاد الجبال كانت تسمى **(Asphada)** دخلها الإسكندر الأكبر، وأسلمها للسلب والنهب، وهي موطن أبي الفرج المتوفى سنة ٣٥٦ هـ صاحب كتاب الأغاني، وكانت قاعدة ركن الدولة بن بويه الذي استوزر ابن العميد الكاتب المشهور، وإليها ينسب الفتح بن علي البنداري، مترجم الشهامة الفارسية المتوفى سنة ٦٢٣ هـ، وأبو القاسم الراغب الأصبهاني من أئمة اللغة والأدب المتوفى ٥٠٤ هـ، وعماد الدين الأصفهاني للكاتب المشهور المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

الحاء، فكان ذلك مما دفعه إلى البحث والتمحيص، حتى اهتدى إلى الصواب، ومعرفة أسماء الأماكن وضبطها، وتحديد موقعها مما يتصل أقوى اتصال بالدراسة الأدبية، وذلك لما بين البيئة والأدب من صلات متينة، هذه الأسباب وغيرها دفعت ياقوتًا إلى تأليف معجم البلدان.

ثم يحدثنا ياقوت عن موقف العلماء قبله من علم الجغرافيا، فيقول: ""إن المصنفين في هذا العلم فريقان، فريق يعني بذكر المدن المعمورة، والبلدان المسكونة المشهورة، وفريق يتكلم عن البوادي والقفار، والاقتصار على منازل العرب الواردة في الأخبار والأشعار""، ثم يعنى بذكر فريق آخر من العلماء قصروا بحوثهم على ذكر العمران، ومن هذا الفريق جماعة كبيرة من القدماء والفلاسفة والحكماء، منهم: فيثاغورس [1]، وبطليموس[2]، وسموا كتبهم جغرافية، ثم يمحص ياقوت

[1] فيثاغورس (Pythagoras) فليسوف يوناني ولد في القرن السادس قبل الميلاد في جزيرة ساموس بالقرب من شاطئ افسس على بحر لإيجى. والفيثاغورثيون علماء في الرياضة وفي فن الموسيقى، ومن آرائهم الفلكية أنهم يقولون: في البدء كانت النار وسط الكون، وبقوة الجذب تجمعت الأجزاء غير المحدودة، وكونت المحدودة، وهو العالم، والعالم كروي الشكل، وتتحرك حول النار عشرة كواكب سماوية، وكان فيثاغورس يقول بتناسخ الأرواح، وينسب إليه القول بأن نهاية الأشياء كلها العدد.

[2] بطليموس _(Ptolemee) هو كلوديوس بطليموس رياضي فلكي جغرافي يوناني مصري، يقال ولد في بيلوسيوم، ونشأ في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد، وقلما يُعرف شيء عن أخبار حياته، ونظامه الفلكي العظيم يحتوي على كل ما عرفه من المراقبات الفلكية، وأهم قسم من نظامه الفلكي الذي أودعه كتابة المشهور هو قائمة كواكب مأخوذة من قائمة ابرخوس، وكتابه المعروف عند اليونان بـ(السنتكس الرياضي) وعند العرب بـ(المجسطي) يبحث في العلاقة بين الأرض والسماء، وتأثير الكواكب في الأرض، ورأيه في الشمس

كلمة ""جغرافية[1] "" فيقول سمعت من يقولها بالغين المعجمة والمهملة، ومعناها صور الأرض، ومن علماء المسلمين الذين اهتموا بالبحوث الجغرافية، وسلكوا في بحوثهم طريقًا أوفى من أولئك ابن خرداذبة [2]، وابن الفقيه أبو زيد البلخي[1] والإصطخري [2]وابن حوقل [3]،

والقمر الذي بدونه لا يمكن معرفة الكواكب، وفلك الثوابت، وتعيين أفلاك السيارات، وهو يجعل الأرض في وسط المسكونة. وبقى نظام بطليموس المؤسس على مذهب أبرخوس مقبولًا إلى كوبرينكوس، وفي تلك الفترة لم يكن هناك شيء في علم الفلك إلا شروح على كتاب بطليموس، ولولا العرب لفقد كتاب المجسطي، فقد ترجموه في خلافة المأمون سنة ٨٣٧م وسموه المجسطي، وقد نقله الحجاج بن مطر، وصحح العرب كثيرًا من أغلاطه، وانتقده أبو محمد جابر بن الأفلح الأندلسي في كتاب له يسمى (اصطلاح المجسطي).

[1] جغرافية: كان العرب في الجاهلية يفهمون الجغرافيا المفسرة بلفظ وصف الأرض، لأنهم كانوا يعرفون من وصف بلادهم ومواطنهم ما لا تعرفه أي أمة من وصف بلادها، ولما اتسعت فتوحاتهم بعد الإسلام سموا هذا الفن: علم المسالك والممالك، أي الجغرافيا الوصفية التخطيطية، أما الجغرافيا الرياضية التي تبحث في شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب، فقد نقلوها عن الهمود، ثم عن اليونان.

[2] ابن خرداذبة: هو أبو القاسم عبد الله بم أحمد بن خرداذبة، كان واليًا على البريد والحبر بنواحي جبال طبرستان، ثم نادم الخليفة المعتمد واختص به، وله في الجغرافيا: المسالك والممالك، وهو كتاب مشهور في أقسام المملكة العباسية وجباية خراجها، وهو من أصل فارسي، ولد في أول القرن الثالث الهجري. ويقول حاجي خليفة إنه مات في سنة ٣٠٠هـ.

[1] البلخي: هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي جغرافي عربي، ولد في (شامستيان) من أعمال بلخ واعتنق بادئ الأمر مذهب الإمامية، ودرس الفلسفة بعد ذلك هو والكندي، وعاش في رعاية أبي علي الجيهاني وزير السامانيين، ولكن الوحشة دبت بينهما بعد ذلك، فدعي لزيادة بخارى ولكنه لم يأنس من نفسه الجرأة على عبور نهر (جيحون).

وتوفي البلخي في ١٩ من ذى القعدة سنة ٣٢٢ هـ، وأورد صاحب الفهرست بيانًا بأسماء ٤٣ مصنفًا له، فقدت كلها في عهد متقدم، أما الحاج خليفة فلم يعرف له إلا ستة كتب ومن

ويذكر ياقوت أن العلماء الذين عرضوا في بحوثهم الجغرافية إلى ذكر

بينها صورة الأقاليم، وقد ذكره المقدسي، وكتاب البدء والتاريخ الذي نسب إليه خطأ، أما مؤلفه الحقيقي فهو مطهر بن طاهر المقدس.

[٢] الإصطخري: هو أبو إسحق الفارسي المشهور بالإصطخري نسبة الى إصطخر، وهي بلدة بفارس واقعة في الشمال الشرقي من شيراز، وعلى بعد ٣٥ ميلًا منها في الطريق إلى أصبهان، وهو من أشهر مؤلفي الجغرافيا في العصر العباسي، وله كتاب (مسالك الممالك) وكتاب الأقاليم، وصف فيهما المعروف من الممالك في عصره، ويطلق على إصطخر الآن (تشهيل منار) أي ذات الأربعين عمودًا.

[٣] ابن حوقل (Ibn- Hawkal) هو أبو القاسم محمد تاجر موصلي، ورحالة عربي وجغرافي مشهور، وهو يذكر عن نفسه أنه ترك بغداد عام ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٣ م) بقصد دراسة البلاد والشعوب والكسب عن طريق التجارة، فجاب بلاد العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب، ووصف بلاد البربر والأندلس، ودخل صقلية، وقد استغرقت رحلاته ثمانية وثلاثين عامًا، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري من (٩٤٣ – ٩٧٠ م)، درس مؤلفات المتقدمين كالجيهاني وابن خراذبة، ويقول دوزي (Dozy) إنه كان عينًا للفاطميين، ويحتمل أن يكون قد لقي الإصطخري في رحلاته، وأنه أشار عليه أن يهذب بعض خرائطه الجغرافية، وأن يراجع مصنفه، ولكن ابن حوقل عزم على كتابة مصنفه (المسالك والممالك) من جديد، وقد نشر هذا الكتاب العلامة ده غوي (de – Goeje) في المجلد الثاني من الجغرافيا.

[٣] ابن حوقل (Ibn- Hawkal) هو أبو القاسم محمد تاجر موصلي، ورحالة عربي وجغرافي مشهور، وهو يذكر عن نفسه أنه ترك بغداد عام ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٣ م) بقصد دراسة البلاد والشعوب والكسب عن طريق التجارة، فجاب بلاد العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب، ووصف بلاد البربر والأندلس، ودخل صقلية، وقد استغرقت رحلاته ثمانية وثلاثين عامًا، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري من (٩٤٣ – ٩٧٠ م)، درس مؤلفات المتقدمين كالجيهاني وابن خراذبة، ويقول دوزي (Dozy) إنه كان عينًا للفاطميين، ويحتمل أن يكون قد لقي الإصطخري في رحلاته، وأنه أشار عليه أن يهذب بعض خرائطه الجغرافية، وأن يراجع مصنفه، ولكن ابن حوقل عزم على كتابة مصنفه (المسالك والممالك) من جديد، وقد نشر هذا الكتاب العلامة ده غوي (de – Goeje) في المجلد الثاني من الجغرافيا.

الأماكن العربية والمنازل البدوية هم طبقة أهل الأدب، ومنهم الأصمعي وأبو سعيد السيرافي[1]، والغندجاني [2]، وأبو عبيد [3]البكري الأندلسي.

[1] السيرافي هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي النحوي، المعروف بالقاضي، سكن بغداد وتولى بها القضاء نيابة عن أبي محمد بن معروف البغدادي قاضي القضاة، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وله شرح جيد لكتاب سيبويه، وكتاب ألفات الوصل والقطع، وكتاب أخبار النحو بين البصريين، وكان نزيهًا عفيفًا حسن الأخلاق معتزليًا، ولا يأكل إلا من كسب يده. وكان أبوه مجوسيًا يسمى بهزاد ولكنه أسلم. وتوفي السيرافي في ٢ من رجب سنة ٣٦٨ وهو عمره ٨٤ سنة، ودفن بمقابر الخيرزان ببغداد، وأصله من سيراف فنسب إليها، وهي مدينة من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلي كرمان.

[2] الغندجاني هو المعروف بالأسود الغندجاني اللغوي النسابة. وغند جان، بلد قليل الماء، ولكنه لا يخرج منه إلا أديب أو حامل سلاح، وكان الأسود صاحب دنيا وثروة، وكان علامة نسابة عارفًا بأيام العرب وأشعارها، قيمًا بمعرفة أحوالها، وكان كثير الرواية عن محمد بن أحمد أبي الندى، وهو رجل مجهول لا معرفة لنا به، وكان أبو يعلي بن الهبارية الشاعر يعيره بذلك، لأن أبا الندى لم يكن شيخًا مشهورًا، ولا ذا علم مذكور، وكان يكثر من الرد على الأئمة، ويقال: إنه كان يتعاطى تسويد لونه، وأنه كان يدهن بالقطران، ويقعد في الشمس، ليحقق لنفسه التلقيب بالأعرابي، وقد عاش في كنف الوزير العادل أبي منصور بهرام بنمنافنه وزير الملك طاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، صاحب شيراز، فكان الأسود إذا صنف كتابًا جعله باسمه، فأفاد بذلك مالًا كثيرًا حتى أثرى. ومن تصانيفه: كتاب السل والسرقة، وكتاب فرحة الأديب في الرد على يوسف بن أبي سعيد السيرافي في شرح أبيات سيبويه، وكتاب ضالة الأديب في الرد على ابن الأعرابي في النوادر التي رواها ثعلب، وكتاب في أسماء الأماكن.

[3] هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، أقدم جغرافي أندلسي وصلت إلينا مؤلفاته. وعاش في النصف الثاني من القرن الخامس = الهجري، وهو من قبيلة بكر العظيمة التي كان لها شأن بين القبائل العربية في غربي الأندلس، وأتم دراسته في قرطبة ولحق بخدمة محمد بن معن أمير المرية الذي لقيه لقاءً حسنًا، وجعله من صفوة خلصائه، وتابع البكري دراسته بالمرية واتصل بعلماتها الأعلام، ومنهم أبو مروان بن جيان، وفي سنة

ومما لا شك فيه أن ياقوتًا قد انتفع بتصانيف أولئك العلماء، كما نقل عن الكثير من دواوين العرب وتواريخ أهل الأدب، وأخذ عن المحدثين، كما نقل عن أفواه الرواة والكتب، وقد رتب كتابه "معجم البلدان" على حروف المعجم، أما طريقته في عرض الحديث عن الأماكن والبلاد، فهي أن يذكر اسم المكان أو البلد ضابطًا كل حروف الاسم، معتمدًا على أوثق المصادر، وأدق المراجع، ويعني بذكر مشتقات الاسم إن كان عربيًا، ويوضح معناه إن كان أعجميًا، مستشهدًا على ما يقول بما تيسر له من الشعر، ويذكر ما بالمكان من آبار وآثار وعجائب، ويبين الإقليم الذي هو به.

ومن العجيب أنه لا ينسى بيان طالع المكان والكوكب المستولي عليه، ومن بناه وأي بلد من المشهورات يجاوره، ومقدار المسافة التي بينهما، ثم ما حدث فيه من الوقائع الحربية في الجاهلية والإسلام، مؤيدًا ما يقول بشيء من شعر العرب، وهل فُتح هذا المكان صلحًا أو عنوة، وفي أي زمن فُتح، ومن فتحه، وكيف فُتح، ومن كان أميره بعد الفتح، ومن استُشهد به من الصحابة، ومن دُفن به من الأعيان والصالحين، ونبغ من أهله من العلماء أو الكتاب أو الشعراء الذين نبهوا ونسبوا إليه، كما يحدثنا عن نبذ من تاريخهم، وشيء من شعرهم، ويذكر ما اشتهر به أهل

---

٤٧٨ هـ سافر البكري باعتباره سفير أمير المرية مع المعتمد بن المعتضد أمير إشبيلية إلى مراكش لطلب عون يوسف بن تاشفين المرابطي على نصارى قشتالة، ويلوح أن البكري عاد إلى قرطبة بعد غزو المرابطين، وتوفي بها في سن متأخرة في شوال سنة ٤٨٧ هـ. ومن مصنفاته كتاب اللآلئ على كتاب الأمالئ للقالي، ومعجم ما استعجم، والمسالك والممالك.

البلد من كريم الخلال أو سيئ الصفات والأفعال، ويفند في تحقيق دقيق ما اتهموا به من ذلك بغير حق، ولكن ياقوتًا لم يتيسر له أن يتناول كل مكان أو بلد بهذه البحوث الشائقة الممتعة، وما كان ليحاول إلا ما أداه إليه اجتهاده وبحثه.

ولا ينسى ياقوت أن يحدثنا في معجمه هذا عن بعض أشياء لا يتصورها العقل، فهي من قبيل الخرافات والأوهام، ونراه حين يذكر هذه الأوهام ينبه على ذلك، ويحتج لنفسه بأنه إنما أتى بها من قبيل إحراز الفوائد، فإن كان حقًّا ما ذكر، فقد أخذ من ذلك نصيب المصيب، وإن كان ما ذكر هو الباطل، فقد نقل ما وجد وما سمع، وهو يقول في ص٢١ من معجم البلدان: ""وفي أخبار قصاصي المسلمين أشياء عجيبة، تضيق بها صدور العقلاء، وأنا أحكى بعضها غير معتقد لصحتها"".

ويقول ياقوت في باب اللام وما يليها: ""اللاذقية بالذال معجمة مكسورة وقاف مكسورة وياء مشددة: مدينة في ساحل بحر الشام، تعد من أعمال حمص، وهي غربي جبلة، بينهما ستة فراسخ وهي الآن من أعمال حلب.

قال بطليموس: مدينة عتيقة رومية فيها أبنية قديمة مكينة، وهي بلد حسن في وطاء من الأرض، وله مرفأ جيد محكم، وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض، والبحر على غربيها، وهي على ضفته، يقول المتنبي:

والشمس في كبد السماء مريضة   والأرض راجفة وهي تمور
وحفيف أجنحة الملائكة حوله   وعيون أهل اللاذقية صور

ومن هذه المدينة خرج "نيقولاوس" صاحب جوامع الفلسفة،

وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم، وينسب إليها المصيصي[1]، ثم اللاذقي الفقيه الشافعي الأصولي"".

وعلى هذا النمط من البحث يجري ياقوت في معجم البلدان، مما يدل على مقدار تحقيق الرجل وعلمه الغزير، وبحثه المتشعب الأطراف. ولا شك أن ياقوتًا قام بعمل جليل في هذا المعجم لم يتهيأ لغيره من قبل.

ومن الطريف أنه قسم مقدمة الكتاب خمسة أقسام نفيسة، تدل على براعته في علم الجغرافيا، فالقسم الأول يذكر فيه صورة الأرض، وما قاله المتقدمون في هيئتها، والمتأخرون عن صورتها، وفي القسم الثاني يتحدث عن الإقليم واشتقاقه، ويشرح في الثالث ألفاظًا يرد ذكرها في بحوثه كالبريد والفرسخ والميل والكورة، وفي الرابع يتحدث عن حكم الرضيين والبلاد المفتتحة في الإسلام، وفي الخامس يذكر بعض أخبار البلدان والتي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع.

وياقوت دقيق كل الدقة في تبويب معجمه وتقسيمه، فهو بعد أن يفرغ من تقسيمات المقدمة، يقسم كتابه ثمانية وعشرين كتابًا مرتبة على حسب حروف المعجم، كما يقسم كل كتاب ثمانية وعشرين بابًا.

---

[1] المصيصي: هو أبو العباس التامي الدارمي المصيصي: شاعر مشهور ومن خواص سيف الدولة بن حمدان، كان عنده تلو أبي الطيب في المنزلة والرتبة، والدارمي نسبة إلى دارم وهو بطن كبير من تميم، والمصيصي نسبة إلى مصيصة وهي مدينة على ساحل بحر الروم بجوار طرسوس، وقال في القاموس: والمصيصة بلد الشام ولا تشدد، وقد ضبطها صاحب تقويم البلدان، فقال بكسر الميم وتشديد الصاد وسكون الباء، وفتح الصاد. وتوفي بحلب سنة ٣٩٩ هـ.

ومن هذا العرض اليسير لكتاب معجم البلدان يتجلى لنا أنه موسوعة جغرافية، مزج فيه ياقوت مسائل الجغرافيا في عصره بموضوعات الأدب والتاريخ، ليدفع الملل عن القارئ، ويمتعه بأفانين القول، فهو حقًّا خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافيا، ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب قد زاد في ثروة الإنسان العلمية، مما أدى إلى تقدم الجغرافيا خطوات فسيحة. يقول سارطون: ""إن كتاب معجم البلدان هو معجم لعلم الجغرافيا، وهو منجم غني جدًا للمعرفة، وليس له نظير في سائر اللغات"".

قيمة الكتاب الجغرافية والأدبية:

وضع ياقوت كتابه "معجم البلدان"، وهو يقصد منه الغايات الآتية:

" ١ " الاتعاظ والاعتبار بما حل بالبلاد من دثور وفناء، بعد أن عمرت بأهلها، وسعدت بسكانها، عملًا بقوله تعالى: ""أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبيعقلون بها أو آذان يسمعون بها"".

" ٢ " معرفة الأماكن عند قراءة السنة والآثار ورواية الأحاديث والأخبار، ومعرفة مواقيت الحد، ومزارات الصحابة والتابعين، ومشاهد الأولياء والصالحين.

" ٣ " التمكن من ضبط أسماء الأماكن والبلدان والجبال ضبطًا صحيحًا، للسلامة مما يقع فيها من التحريف الكثير عادة، والاهتداء إلى معرفة البلاد التي نُسب إليها مشهور العلماء والأدباء.

" ٤ " معرفة مواطن غزوات سيد المرسلين صلوات الله عليه،

وفتوح الخلفاء الراشدين، وهل فُتحت هذه البلاد صلحًا أو عنوة.

ولمعجم البلدان فضلًا عن ذلك مزايا عظيمة الأهمية للمشتغلين بالدراسات العربية، وآداب اللغة، ومن تلك المزايا:

" ١ " وقوف القارئ على حقيقة أسماء البلاد والأماكن، والاهتداء إلى ضبطها ضبطًا صحيحًا، ومعرفة اشتقاق ما اشتق من الأسماء العربية منها، فإن المؤلف يعني بتوفية الكلمة حقها من البحث اللغوي والصرفي، كما يهتم بتعريف مواقع هذه المواضع، وما قيل فيها من شعر، وما ارتبط بها من حوادث، وما أصابها من تغيير وأحداث، فإن البقاع شأنها كشأن الناس، يقول الشاعر:

وإذا تأملـــت البقـــاع وجـــدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

" ٢ " ثم معرفة القبائل العربية، وكيف تنقلت كل منها في أرجاء الجزيرة العربية، وكيف تراكمت ببعضها البلاد، حتى ألقت عصا التسيار، في جهات استقر بها النوى عندها. وهذا لعمرى مما يسهل على القارئ فهم كثير من شعر القبائل العربية، مما يتوقف فهمه على معرفة مساكنها، والإلمام بأيام ظعنها، وأيام إقامتها، وبأزمة حلها وارتحالها، ولاشك أن معرفة مساكن القبائل العربية تمكن المشتغل باللغة وآدابها أن يتلقى بالقبول ما يقوله له شاعر عربي، ويتلقى بشيء من الحيطة والحذر ما يقوله آخر، فإن للسكن والجوار في ذلك أثرًا بيِّنًا، آثر الرواة وعلماء اللغة بعض القبائل العربية، فأخذوا عنها اللغة الفصيحة؛ لأنها لم تقرب من الريف، ولم تخالط أممًا غير عربية، ولم يأخذوا عن قبائل أخرى، لأن

عربيتها قد شابتها شائبة إما بالجوار، وإما بالامتزاج.

" ٣ " ومن هذه المزايا أن أيام العرب ووقائعها ذات صلة وثيقة بتاريخ هذه الأمة وآدابها، ولا نذهب بعيدًا إذا قلنا: إن أيام العرب، ولا سيما في الجاهلية من أقوى البواعث على قول الشعر أو إلقاء الخطب، ومن أعظم الدواعي للإجادة في ذلك، ولا يتاح للقارئ أن يفهم كثيرًا من هذه الآثار الأدبية البليغة فهمًا صحيحًا إلا إذا عرف أماكن هذه الآثار، ويحسن بلاغتها، ويعرف الشيء الكثير من أسباب الحوادث فيها.

" ٤ " ومنها الإلمام التام بكثير من عادات العرب وأخبارها وعقائدها، ومعرفة حياتها الاجتماعية والفكرية والأدبية، فقد بث ياقوت في معجمه هذا شيئًا عظيمًا من ذلك منظومًا في شعر بليغ، يتيسر فهمه لمن عرف هذه العادات وألم بأماكن وقوعها.

" ٥ " ومنها أن كثيرًا من الشعر العربي قد وردت فيه أسماء أماكن رحل الشاعر عنها، أو حن إليها أو اشتاق لمن بها من الأحبة، أو قضى فيها ميعة شبابه، أو أسفه الزمان فيها بما كان يرومه، وقل أن يخلو شعر عربي من أسماء جهات، سواء أكانت مدنًا أم بلادًا أم جبالًا أم وهادًا أم مياهًا أم غير ذلك، فإن حياة البدوي كانت نجعة وارتيادًا وحلًا وترحالًا، فالبدو يتتبعون مساقط الغيث، ومنابت الكلأ، وكثيرًا ما يكون مصطافهم غير مرتعهم، ومشتاهم غير محذفهم، وقد ضمَّنوا كل هذه الحياة غير المستقرة أشعارهم، التي هي أصدق مرجع لتاريخهم، ولهذا قيل: إن الشعر ديوان العرب ومجمع مفاخرهم.

" ٦ " كما يعطينا هذا الكتاب صورة واضحة عن الاجتماع العربي، ففيه يتمثل للقارئ حنين العربي إلى بلاده، وتعلقه بمسقط رأسه، وحيث حل الشباب تمامه، ويقف من ذلك على طائفة صالحة من أرق الشعر وأبلغه، يتجلى فيها نزوع العربي إلى معاهد نشأته، وملتقى أحبائه، وكيف تتعلق نفوسهم بها، إذا فارقوها، وتتطلع إليها أعناقهم، وتتلفت إليها قلوبهم إذا أزعجتهم الحياة عنها، فيعبرون عن ذلك بشعر عذب، تتجلى فيه رقة العاطفة، وصفاء النفس، وكرم الطبع، وحسن الشمائل.

٧- ويجد القارئ في هذا المعجم ما ينقض النظرية القائلة بأن العربي لايقول الشعر إلا في بيئته، فإن فيه نماذج كثيرة من الشعر الذي قاله العرب في أماكن الغزوات والفتوح وأسفارهم البعيدة، وفي هذه الأسفار وصف العرب أهل البلاد التي دخلوها غازين أو مسافرين، فوصفوا أهلها وحسن بلائهم فيها، وعبروا عن عواطفهم في إقامتهم فيها، قالوا ذلك في فتوح بلاد كثيرة كفارس[١] وخراسان[٢] والشام ومصر.

٨- وقد عني ياقوت في معجم البلدان عند ذكر المدن ببيان أسماء من سكنوها من العلماء والأدباء والكتاب والخطباء والمؤلفين والشعراء.

---

[١] فارس: إقليم من بلاد الفرس، اختص عند العرب باسم فارس، لقربه من بلادهم، وهو بين بلاد الجبال شمالًا، وخوزستان وبحر فارس غربًا، وكرمان غربًا.

[٢] خراسان: إقليم من أكبر الأقاليم الفارسية، يشمل بلاد بيهق أي إقليم فرطيا القديم (PARRNIE) وجورجان إلى طخارستان، والأول هو إقليم مرجيان القديم، أو المرج، وأشهر مدنه مرو وهراة ونيسابور وطوس وسرخس. فتح هذا الإقليم الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب.

وبالحديث عن مؤلفاتهم في العلوم المختلفة،كما أورد الكثير من بليغ أشعارهم وخطبهم، ومن حسنات ياقوت في هذا الكتاب الجليل أنه انفرد في بعض الأحيان بذكر بعض الآثار الأدبية، التي لا يكاد الباحث يعثر عليها في غير معجم البلدان، وكثيرًا ما نوه بأسماء شعراء وكتاب وخطباء، كانوا مغمورين فكشف عنهم النقاب.

البحوث الأدبية التي يمكن استنباطها من معجم البلدان:

ومما يرفع من القيمة الفنية لهذا الكتاب أنه نواة صالحة وكنز أدبي زاخر ببحوث أدبية طريفة، يصلح كل بحث منها لأن يكون كتابًا على جانب من الأهمية في موضوع بحثه، تزداد به ثروة الأدب العربي، ومن هذه البحوث ما يأتي:

" ١ " شعر لصوص العرب:

الكلام عن شعر لصوص العرب، فما أكثر شعرهم فيه، ذكره ياقوت عند ذكره لأسماء البلاد التي فروا إليها أو تلصصوا بها، أو حبسوا فيها، أو حنوا إليها، وشعر اللصوص كما يحدثنا أدباء الرواة عالي الطبقة في البلاغة، يمتاز بالجزالة والقوة، ويمثل قوة العارضة والشكيمة، ويصور أبلغ تصوير ما يتصف به هؤلاء اللصوص من الشهامة والنجدة، والإباء، والاعتداء بالنفس، والاعتزاز بالقوة. وكان لصوص العرب عربًا خلصًا لم تلوَّث سليقتهم العربية بمؤثر حضري، فقد كانوا مع قسوتهم وشدة فتكهم ذوي طبع كريم، ونخوة عربية، ولم يكونوا مثل لصوص زماننا الذين يمثلون الخسة والنذالة، والجبن والوحشية. ويزعم بعض الرواة أن للإمام السكري كتابًا يسمى "شعراء النصوص"، ولكنه مفقود، غير أنه في

استطاعة الباحثين من رواد الأدب إحياؤه من كتاب معجم البلدان.

٢-الأدب المصري:

ومن البحوث التي يمكن استخراجها من معجم البلدان؛ الأدب في مصر، وهو موضوع شائق جذاب، جدير بالعناية والدرس، ففي كثير من جوانب هذا الكتاب يجد القارئ ما يروقه من الأدب المصري، من التعريف بالكثير من الشعراء المغمورين، والإبانة عن كثير من آثارهم الشعرية، منذ قامت مصر العربية إلى القرن السابع الهجري، وتلك هي الفترة الأدبية في تاريخ مصر الأدبي، التي تحتاج إلى الدراسة المركزة، ومعجم البلدان أصدق مورد لم يريد أن يخرج مؤلفًا قيّمًا عن الأدب بمصر، منذ الفتح إلى نهاية العصر الأيوبي.

٣-دراسات في الأدب الأندلسي:

والباحث يجد لهذا الأدب حظًا كبيرًا في معجم البلدان، إذ يرى فيه مددًا واسعًا من الشعر، وأسماء كثيرة من الشعراء والكتاب والخطباء الذين نبغوا ببلاد الأندلس أو المغرب، وكانت لهم آثار قيمة جديرة بالبحث والدراسة، وما جاء في معجم البلدان من هذه الدراسات إذا أضيف إلى ما تضمنه "نفح الطيب"[١] أنتج ذلك بحوثًا على جانب كبير

---

[١] نفح الطيب ويسمى (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، ويقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء كبيرة، وقد طبع أولًا في ليدن مع ترجمة باللغة الفرنسية بين سنتي ١٨٧١ – ١٨٥٥، ثم طبع في مطبعة بولاق وفي المطابع الأهلية، وآخر طبعة ظهرت له هي طبعة دار المأمون، وقد قسمت أجزاء صغيرة في صفحات متوسطة

من الأهمية في تاريخ الأدب الأندلسي، ومما يلفت النظر أن المكتبة العربية ما زالت فقيرة في الدراسات الأندلسية، مع توافر المراجع التي تمد الباحث بفيض غزير، ومدد كبير.

٤- أدب الخوارج[١]:

فقد ورد فيه الكثير من أخبارهم المستفضة وخطبهم وأشعارهم، وقد جاءت مبثوثة في الأماكن التي وقعت فيها حروبهم، والجهات التي ظهر فيها بلاؤهم. ويجد الباحث المدقق في تلك الآثار البليغة التي امتاز بها أدب الخوارج مادة يستخرج منها أخبار الخوارج وأقسامهم وعقائدهم، وآدابهم.

و المطلع على أدب الخوارج[١] يتضح له ما عرف به القول من شدة العارضة، وقوة الحجة، وعزة النفس، وقوة اليقين، والثبات على المبدأ، والتمسك بما كانوا يعتقدونه حقًا. وقد استفاضت أخبار الخوارج في

الحجم، وضبطت كلماتها، وحققت روايتها، وعلق عليها الأستاذ الكبير أحمد يوسف نجاتي، ويتناول الكتاب ذكر البلاد الأندلسية، وصف رياضها السندسية ويفيض في تراجم الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق، والوافدين على الأندلس من أهل المشرق، كما يتحدث عن فضل أهل الأندلس وحسن بلادهم، وعن تغلب العدو على الأندلس وما قيل في ذلك من شعر أو أدب، كما يذكر مخاطبات الملوك الموجهة إلى لسان الدين من السلطان أبي زيان وابن الأحمر، ومصنفات لسان الدين بن الخطيب وتلاميذه، وهو ديوان الأدب الأندلسي، وهو من وضع أبي العباس أحمد بن محمد المالكي الأشعري المقري. وتوفي بمصر في جمادى الأولى سنة ١٤١ هـ، ودفن في مقبرة المجاوريين. الاستاذ الكبير أحمد يوسف نجاتى ، و يتناول الكتاب ذكر البلاد الاندلسية، و صف رياضها السندسية و يفيض فى تراجم الان.

[١] الخوارج: تقدم الحديث عنهم.

العصر الأموي ولذلك كان أدبهم بارزًا في هذا العصر.

٥- الأدب النسوي:

والغرض منه بيان ما للمرأة من أثر في الأدب والشعر، ففي الكتاب طائفة من أسماء شواعر أورد لهن شعرًا رقيقًا في أغراض مختلفة، ولاسيما فيما تجيده المرأه من القول كالحنين إلى الولد والوطن، وكالرثاء وغير ذلك مما يشف عن عواطف الأمومة ونحوها.

٦- موضوع الديرة:

ونحوها من أماكن النزهة التي وجد الشعراء فيها مجالًا واسعًا لنظم الشعر العذب. والباحث الأديب يتاح له أن يؤلف في هذا الموضوع رسالة ممتعة تتناول الشعر الرقيق العذب، الذي يرسل الشاعر نفسه فيه على سجيتها، فلا تقيده رغبة ولا رهبة.

٧-أدب الشيعة [١] والشعوبية:

ففي الكتاب طائفة من أسماء الشيعة والشعوبية، وقدر صالح من

---

[١] الشيعة: هم أنصار علي بن أبي طالب، وهم يرون أنه أحق بالخلافة من غيره، ومن فرق الشيعة الكسانية، نسبة إلى كسان وهو لقب المختار بن أبي عبيد، والشيعة الإمامية، وهم أتباع علي بن زيد العابدين، والشيعة الزيدية. والتشييع بدعة طارئة على المسلمين وأول من ابتدعه عبد الله بن سبأ اليهودي، ونشر هذه البدعة المختار بن أبي عبيد، وقد تقبلتها نفوس الفرس، لما فيها من الاستعداد لها، وإذا كان مذهب الخوارج هو المذهب الديمقراطي في الإسلام، فإن التشييع هو المذهب الأرستقراطي، لأنه يرمي إلى حصر الخلافة في آل علي بن أبي طالب. والتشيع مثل مذهب الخوارج لم يكن مذهبًا سياسيًا فحسب، بل سرعان ما اكتسب الصفة الدينية وأصبح له فقه خاص يفترق عن الفكر السني في الأصول والفروع.

شعر هؤلاء الشعراء، مما أنشدوه لتأيد دعوتهم، وما ردَّ به خصومهم عليهم. وأدب الشيعة مبحث طريف لم يدرس إلى الآن درسًا واعيًا مستفيضًا، ومثله أدب الشعوبية.

وبعد فأنت ترى أن معجم البلدان موسوعا جغرافيا مزج فيها ياقوت مسائل الجغرافية في عصرة بالادب والتاريخ، وغيرشك أن ياقوتا كان يقصد بذلك دفع الملل عن القارىء، وأمتاعه بأفانين القول ومن أجل ذلك كان الكتاب خزانة علمه وادبه، وتاريخ وجغرافية .

و قد طبع هذا الكتاب في أوربة طبعة مشوهة في ليبسك سنة ١٨٦٦م –١٨٧٠م في أربعة مجلدات، ثم طبع بمطبعة دار السعادة بمصر، وكان الفراغ منه في شوال سنة ١٣٢٤ هـ ويقع في ثمانية أجزاء، وله ذيل يسمى منجم العمران في المستدرج على معجم البلدان، جمعه ورتبه السيد أمين الخنجى وطبع بدار السعادة " ١٩٠٧م – ١٣٢٥ هـ " ويقول جامعه بأنه لم يقصد بكتابه أن يكون استدراكًا لما تركه ياقوت، فإن ياقوتًا ما ترك شيئا، ولكنه يريد ذكر ما يدور على ألسنة الناس ما لم يصل إلى تنقيب المؤلف في جاهلة مكانه في زمنه، أو كان مما حدث بعد زمنه، وبخاصة المستعمرات الأفريقية والأمريكية وغيرها، فإن أكثر حديثه الكشف. ولقد لخص معجم البلدان صفي الدين بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، واقتصر فيما لخصه على الجغرافيا، وسماه "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، فقد طبع سنة ١٨٥٠م في أربعة مجلدات.

" ب " إرشاد القريب إلى معرفة الأديب [معجم الأدباء]:

وهذا هو الكتاب الثانى الذي ألفه ياقوت، وطارت به شهرته وطبقت الخافقين، يقول ياقوت: ""وجمعت في هذا الكتاب ما وقع لي من أخبار النحويين واللغوين والنسابين، والقراء المشهورين، والإخباريين، والمؤرخين، والوراقين المعروفين، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وكل من صنف في الأدب تصنيفًا، أو جمع في فنه تأليفًا"".

وياقوت فيما يورده من تراجم يعني بإثبات الوفيات وتبين المواليد والأوقات، وقد رتب تراجمه على حسب حروف المعجم فيذكر مَن أول اسمه ألف، ثم مَن أول اسمه باء، ثم تاء، ثم ثاء، وهو يلتزم ذلك في اول حرف كل اسم وثانيه وثالثه ورابعه، فيقول في باب الألف: ""آدم بن أحمد بن أسد الهروي، يقول فيه أبو سعد اللغوي النحوي: حاذق مناظر، ذكره الحافظ أبو سعد السمعاني، فقال: وهو من أهل هراة""، فإذا اتفقت أسماء عدة رجال كان التقديم لمن تقدمت وفاته على من تأخر، ونجد ياقوتًا لا يلاحظ في كتابه أدباء قطر بعينه، ولا علماء عصر أو إقليم معين، بل نجده يجمع البصريين والكوفيين، والبغداديين، والخراسانيين، واليمانيين، والمصريين، والشاميين، والمغربيين، وغيرهم، على اختلاف البلدان وتفاوت الأزمان، وقد قدم ياقوت لكتابه بمقدمة، تشتمل علىفصلين جليلين: الأول في فضل الأدب وأهله، وذم الجهل وحمله، والثاني في فضيلة علم الأخبار، وفي الفصل الأول يطيل الحديث في مدح الأدب وأهله، ويتحدث عمن تعاطوا التأليف في صناعة الأدب، ويحدثنا

عمن اعتمد على كتبهم، وفي الفصل الثاني يرفع من شأن علم التاريخ، ويقول: إنه علم الملوك والوزراء ونراه يمايز بين الأديب والعالم في أسلوب طريف، ثم يفضل الأدب على العلم ويبين أهمية النحو من علم الأدب، ويقول إن اللحن يسقط من مروءة الرجل، ويؤيد رأيه في فضل علم الأخبار بما حكاه القرآن الكريم عن قصة يوسف وبما جاء في قوله تعالى ""لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"".

ومعجم الأدباء بعد هذا هو قاموس الأدباء، فالقارئ يجد فيه صورة دقيقة لحركة العلم والأدب في الأمة الإسلامية في مدى ستة قرون تقريبًا، ففيه تراجم العلماء، والأدباء والنحاة والشعراء وغيرهم في كل علم وفن، وما ألفه المؤلفون في كل عصر، وفي كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية، فهو تصوير دقيق للحياة الفكرية، والتيارات الأدبية، في هذه الحقبة من تاريخ الأمم الإسلامية.

وكان هذا الكتاب الجليل يقع في مجلدات متفرقة في مكاتب أوروبا والأستانة، حتى نشط العالم المستشرق الإنجليزي "مرجلويث" للاشتغال بجمع شتات هذا السفر العظيم، والوقوف على طبعه، وقد اهتمت لجنة تذكار "جيب" بنشر ما يمكن العثور عليه من أجزائه، وقد اعتمد "مرجلويث" في نشر هذا الكتاب على النسخة التي عثر عليها بممباي في الهند ثم نقلت إلى مكتبة بوريل بجامعة أكسفورد بإنجلترا، وقد اعتمد الناشر في تصحيحها على المؤلفات التي نقل عنها ياقوت،

أو التي نُقِلت عنه، ومن الكتب التي نُقِلت عن ياقوت معجم الصفدي[1] المسمى "الوافي بالوفيات"، وفي مكتبة بوريل أحد عشر مجلدًا منه، وهو

---

[1] الصفدي: هو صلاح الدين أبو الصفاة بن أبيك، ولد في صفد وتعلم بدمشق عن ابن نباتة المصري وأبي حيان النحوي، وابن جماعة والمزى الفقيهين، وتولى ديوان الإنشاء في صفد، ثم في القاهرة، ثم في حلب، وكان من أشهر كتاب زمانه وأوسعهم علمًا، ألف في التراجم كتابًا عظيمًا، يقع في خمسين مجلدًا وسماه (الوافي في الوفيات)، ولكنه لا يوجد كاملًا في مكان، ومنه في المكتبة التيمورية ستة أجزاء، ومن كتبه (التذكرة الصلاحية) وهي في الشعر والأدب في ثلاثين مجلدًا، وله أيضًا منشأت الصفدي وهي مجموعة مقالات ورسائل مما كتبه عن نفسه أو عن غيره من الملوك الذين خدمهم، ومنها نسخة خطية بدار الكتب المصرية وله أيضًا: إتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، وهو شرح وانتقاد للرسالة الجدية، وهذا الشرح مخطوط بدار الكتب، وتوفي سنة ٧٦٤ هـ ونسبته إلى صفد **(Safed)** وهي مدينة بجبال عاملة بالشام شرقي عكا، وبإقليم صفيد المسمى قديمًا (الجليل) **(Galilee)** أو بلاد البشرى. ستة أجزاء، ومن كتبه (التذكرة الصلاحية) وهي في الشعر والأدب في ثلاثين مجلدًا، وله أيضًا منشأت الصفدي وهي مجموعة مقالات ورسائل مما كتبه عن نفسه أو عن غيره من الملوك الذين خدمهم، ومنها نسخة خطية بدار الكتب المصرية وله أيضًا: إتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، وهو شرح وانتقاد للرسالة الجدية، وهذا الشرح مخطوط بدار الكتب، وتوفي سنة ٧٦٤ هـ ونسبته إلى صفد **(Safed)** وهي مدينة بجبال عاملة بالشام شرقي عكا، وبإقليم صفيد المسمى قديمًا (الجليل) **(Galilee)** أو بلاد البشرى.

[1] السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال، نشأ يتيمًا، وكان ذكيًا، قوي الحافظة، وحفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، ثم تفقه بعلوم عصره، وبلغ عدد شيوخه مائتين وخمسين، وشرع في التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، ورحل في طلب العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب، وبلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة، ومنها في التاريخ (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)، وفي اللغة: المزهر، وفي النحو الأشباه والنظائر، وتوفي سنة ٩١١ هـ، ونسبه إلى أسيوط وهي حاضرة بالصعيد اسمها بالمصري القديم (ساووت) وعند اليونان **(Licopolis)** أي مدينة الذئب، وقد كان معبود سكانها.

ينقل عن ياقوت بتوسع كثير، ثم كتاب "روضة الجنات" المطبوع بالهند سنة ١٣٣٤ هـ، وفي مقتبسات من معجم ياقوت ومعجم السيوطي[1] ومنه عدة نسخ مخطوطة، و"فوات الوفيات" لابن شاكر ومعجم القفطي [2]، واستعان في تصحيحه بعلماء ثقات ومن هؤلاء العلامة اللغوي الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي[1]، فقد راجع ما يقرب من نصف الكتاب، وراجع النصف الباقي العالم الناقد قسطاجي بك الحمصي، صاحب كتاب "تاريخ النقد في الأدب العربي"، وقد اشترك في إبداء بعض الملاحظات

---

[2] القفطي: هو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف وزير حلب، ولد بمصر بمدينة قفط من بلاد الصعيد، وبعد أن تفقه في العلم أقام في القدس ثم تولى القضاة بحلب أيام الملك الظاهر وسماه القاضي الأكرم، وله كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء. توفي سنة ٦٤٦ هـ.

[1] اليازجي: هو العالم المحقق الأديب الشاعر الكاتب إبراهيم بن ناصيف اليازجي، من أعلام اللغة والبيان. ولد ببيروت ونشأ بها وأخذ العلم عن أبيه، وتوفر على كتب اللغة والأدب درسًا وحفظًا حتى أوفى من ذلك على الغاية، وقام بتدريس اللغة بإحدى مدارس بيروت، وعالج الصحافة ببعض جرائدها، ولما اجتمع رأى اليسوعيين على ترجمة التوراة في العربية، عادوا إليه بضبط صياغتها وتنقيح عباراتها، فقضى في هذا نحو تسع سنين، لما ينقطع في أثنائها عن النظم والنشر، ثم نزح إلى مصر سنة ١٨٩٤ م فأصدر مجلة (البيان) ثم استقل بإصدار مجلة أخرى دعاها (الضياء)، وظل يصدرها حتى وافاه الأجل المحتوم، وقد دأب في كلتا صحيفتيه على تعقب الأدباء إذا كتبوا أو نظروا، فدلهم على ما وقعوا فيه من الأخطاء الشائعة في اللغة وفنونها، وهداهم إلى الصحيح الفصيح من القول، وله كتاب جليل دعاه (نخبة الرائد في المترادف والمتوارد) ورسالة أخرى دعاها (لغة الجرائد)، أحصى فيها ما وقع لهم من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء، وله شعر جزل رصين. واليازجي يعد ركنًا من أركان النهضة الحديثة في اللغة والأدب. وتوفي سنة ١٩٠٦- ١٣٢٤ هـ. (المفصل).

على هذه الطبعة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش[٢]، والشيخ محمد حسنين الغمراوي بك كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف، ثم أعاد الناشر طبع الكتاب مرة ثانية، وعندئذ أدخلت عليه تحسينات وتنقيحات أخذت من ملاحظات قيمة، أبداها كبير اللغويين الأب أنستاس مارى الكرملي، واعتمادًا على بعض المراجع الأخرى كطبقات الزبيدي[١]،

---

[٢] الشيخ عبد العزيز جاويش: ينحدر من أصل مغربي، ولكنه ولد في الإسكندرية ونشأ بها، وبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، طلب العلم بجامع إبراهيم باشا، ثم وفد إلى الأزهر، ودخل دار العلوم، واشتهر بين لداته بالجد في الطلب والجد في القول والعمل والغيرة على الدين وعلى الكرامة جميعًا. وكانت صلابته في الحق مضرب الأمثال، ولما تخرج في دار العلوم تولى التدريس في مدرسة الناصرية، ثم سافر في بعثة إلى إنجلترا، فلما أتم علومه عاد مفتشًا في وزارة المعارف ثم عين أستاذًا اللغة العربية في جامعة كامبردج، فقضى مدة في إنجلترا، ثم عاد إلى مصر، ولكنه رأى أن يخدم وطنه من طريق السياسة والاشتغال بالصحافة فاستقال من وظيفته، وانضم إلى الحزب الوطني، وكان يحرر في جريدة اللواء، واتهم في جريمة صحفية، وقضي عليه بالحبس، ولما أفرج عنه سافر إلى أوروبا، ولما نشبت الحرب العلمية الأولى ولم يجد سبيلًا إلى العودة، فظل يتقلب في بلاد أوروبا وكان أكثر مقامه بألمانيا. وقد ذاق الأمرين من الفاقة والغربة، ولما وضعت الحرب أوزارها رجع إلى مصر، وأسند إليه منصب مراقب التعليم الأول، فظل فيه إلى أن وافاه الأجل المحتوم، وكانت وفاته في سنة ١٩٢٨ م. أما أسلوبه في الكتابة فقوي وجذل، ولفظه شريف فخم، يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة، وقد يعمد إلى السجع أحيانًا في براعة وإحسان. (المفصل).

[١] الزبيدي: هو الوزير أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي، أخذ اللغة عن أبي علي القالي، وقام بتثقيف هشام المؤيد، وكان على درجة موفورة من الحذق والزكاة والأدب، عرف فضل القالي، فمال إليه، واختص به، واستفاد منه، واستوزره المنصور أبو عامر. وتوفي سنة ٣٧٩ هـ. ومن أشهر مؤلفاته طبقات النحويين واللغويين في المشرق والأندلس، وكتاب الواضح

وتاريخ دمشق لابن عساكر، وهو يتضمن فقرات كثيرة، أوردها يخوض في كتابه، و"نشوار المحاضرة" للتنوخي وغيرها، ثم قام دار المأمون بطبع الكتاب طبعة ثالثة بمطبعة الحلبي، وذلك بالشكل الكامل، وبحروف كبيرة، فكبر حجم الكتاب، حتى صار عشرين جزءًا، وقد أشرفت وزارة المعارف على هذه الطبعة، وكلفت بعض مدرسيها الأعلام الثقات القيام بتصحيح الطبع فأحسن الشرح والتعليق، وإن كان الكتاب بعد ذلك لم يسلم من أغلاط، وقد أُلحق بكل جزء فهرس لأعلامه، كما أُلحق بالكتاب فهرس عام للأعلام على حسب ترتيب حروف المعجم، وفهرس آخر للطبقات؛ فطبقة الأدباء الشعراء لها فهرس وطبقة الأدباء فقط لها فهرس، ثم الأدباء النحويون، والأدباء اللغويون، والنحويون اللغويون، والشعراء النحويون اللغويون، والشعراء اللغويون.. إلخ، ثم فهرس معجم البلدان، وفهرس الكتب الواردة فيه.

ولاشك فيما من لهذه الفهارس من قيمة عظيمة في تيسير البحث في الكتاب، وهي طريقة حديثة، الفضل فيها لأفاضل المستشرقين، الذين أنفقوا أعمارهم الطويلة في البحث والتنقيب، وتحقيق الأصول والضبط.

مزايا طبعة دار المأمون:

ومن مزايا طبعة دار المأمون العناية بالشرح اللغوي، وضبط الكلمات، والتعريف بالكثير من الرجال الذين يذكرهم ياقوت في أثناء

في النحو، ومختصر كتاب العين والزبيدي في المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق، وله شعر رقيق خارج عن شعر النحاة.

تراجمه، كما أن فيها زيادات قيّمة، نُقِلت من كتب نادرة الوجود، لإتمام تراجم ياقوت، كي تستوفي حقها من الإجادة، وفيها تعليقات ممتعة، وفوائد لغوية وأدبية، وتحقيقات علمية وتاريخية.

وبعد فهذان الأثران الجليلان؛ وهما "معجم البلدان" و"معجم الأدباء" من تأليف ياقوت، الذي كان كاتبًا عند عسكر بن نصر الحموي التاجر في بغداد، ولا شك أنهما دليلان على عبقرية ياقوت، التي لم تقف أمامها الحواجز، فهل لنا أن نأمل في جيلنا الحاضر أن يكون في أمثال الياقوت علمًا وصبرًا، يضربون في الأرض ابتغاء العلم والبحث والتنقيب عن الكتب، والتأليف الواسع، الذي يجري على نمط دوائر المعارف؟ وهل لنا أن نطمع في الباحثين من رجال الأدب أن يتوافروا على استخراج البحوث التي أشرنا إليها في كتاب "معجم البلدان"؟

مراجع البحث:

" ١ " "معجم الأدباء" لياقوت.

" ٢ " "معجم البلدان" لياقوت.

" ٣ " "وفيات الأعيان" لابن خلكان.

" ٤ " "الوسيط في الأدب العربي" للسكندري "المرحوم".

" ٥ " "ياقوت" للأستاذ كارد علي.

" ٦ " "الفهرست" لأمين "بك" واصف.

" ٧ " "إعجام الأعلام" لمحمود مصطفى "المرحوم".

" ٨ " "الجاحظ" للسندوبي.

" ٩ " "تاريخ الفلسفة في الإسلام" لدي بور.

" ١٠ " "مبادئ الفلسفة" لأحمد أمين "المرحوم".

" ١١ " المفصل في تاريخ الأدب العربي.

" ١٢ " تاريخ الفرصة من أقدم عصورها إلى الآن.

" ١٣ " "التاريخ الإسلامي" لعبد الحميد العباسي "طبعة خاصة".

" ١٤ " بحث في معجم البلدان للأستاذ أحمد يوسف نجاتي.

" ١٥ " "تراث الإسلام" الجزء الأول.

" ١٦ " دائرة المعارف للبستاني.

"١٧ " دائرة المعارف الإسلامية.

الفهرس